



في أصول المسألة الفلسطينية

بقلم صلاح عيسى

الفهم - حتى مع الفرض المستحيل بعدم توافرية استقلاله - لا يكون جماهير قادرة على فهم القضية والتحرك تحركا حقيقيا تجاهها .
الا ان خطر الفهم الديني يتأكد في :

● ان الفهم الديني يخلق للشعوب العربية ، وللشعب الفلسطيني بالذات ، حلفاء وهميين فهو يضع في صفة ٤٠٠ مليون مسلم ، في حين ان البيانات التي منى بها الشعب الفلسطيني قد نبعت من مسلمين ، بل ان القيادة الدينية التي كانت تفقد حركة التحرر القومي العربي خلال الحرب الاولى وبعدها قد وافقت على خيانة الشعب الفلسطيني فقد (كتب الامير فيصل ابن الشريف حسين وملك العراق فيما بعد - بيانا في جريدة جويش كرونكل « بتاريخ ١٤ اكتوبر ١٩١٩ وهذه الجريدة لسان حال الجمعية الصهيونية في إنجلترا ») يقول : نحن نسعى لننشئ امبراطورية عربية تتألف على الاقل من العراق وسوريا وفلسطين ، فأناشد اليهود ، وهم ساميون قبل العرب طالبا معونتهم في انشاء المملكة العربية حتى اذا كثر عدد اليهود في فلسطين يتيسر لنا ان نجعلها ولاية يهودية من ولايات هذه المملكة العربية) . (٢)

● كذلك يعزل هذا الفهم قوى الشعب الفلسطيني غير المسلم عن النضال ، وقد استغل الاستعمار هذا القصور في الفهم ، وحاولت مشروعاته منذ صدور وعد بلفور حتى قرار التقسيم ان تضرب الوطنية الفلسطينية بتقسيم طائفي ، وفي الكتاب الابيض عام ١٩٢٢ - وضع الانكليز نصا بتشكيل مجلس تشريعي من ٢٢ عضوا منهم ١٠ من الموظفين الانكليز ، و٨ من المسلمين ، و٢ من المسيحيين ، و٢ من اليهود .. بسبل « فقد بلغ من امر المستعمرين ان بذلوا جهودا جبارة لاثارة روح الطائفية والخلاف الديني بين المسلمين والمسيحيين في فلسطين لدرجة ان بعض رجال الاستخبارات من المستعمرين اخرجوا من السجون بعض المجرمين والفوا منهم عصابات زودوها بالسلاح ، وخصصوا لها المراتب والنفقات واطلقوها للاعتداء على القرى المسيحية واغتيال المسيحيين ، اثاره لروح الفتنة وللإيقاع بين ابناء الوطن الواحد » . (٤)

وفي نفس الوقت يعزل هذا الفهم القوى المعادية للاستعمار سواء كانت دولا او قوى اجتماعية داخل دول - عن المعركة ، فالفهم الديني لا يضع هذه القوى وضعها كحليف فقد تكون مسيحية او بوذية او لا تؤمن بالله .

وكان الفهم الديني هو المسؤول عن عدم تحويل المسألة الفلسطينية الى مسألة ممكنة الحل في بعض الظروف ، فقد استغل هذا الفهم التعصب الديني لدى المسلمين ولدى اليهود لخلق حرب دينية رهيبة خلال الفترة من الانتداب حتى حرب فلسطين ، الامر الذي منع القسوى الديمقراطية في فلسطين والبلاد العربية من فرض رأيها بوجود انهاء الانتداب البريطاني وانشاء دولة ديمقراطية في فلسطين كما استغل الاستعمار البريطاني هذا التعصب في تحويل « الحركة الوطنية من حركة سياسية ضد الاستعمار الى حركة دينية وعنصرية ضد اليهود » (٥) وينطلق الفهم الديني ايضا ليناقد قضية صحة او عدم صحة الوعود الموجودة في التوراة بشأن عودة اليهود الى فلسطين ، ويحاول باستمرار ان ينكر صحة هذه الوعود ، وهذا في الواقع ابتعاد بالقضية

المسألة الفلسطينية (٦) هي اهم قضايا العالم العربي المعاصر الحاحا للمعالجة .. واكثرها اثارا للفكر السياسي العربي ، وهي حجر الزاوية في حركة النظم السياسية للدول العربية .

وفي خلال السنوات الخمس عشرة التي مضت على تحول المسألة الفلسطينية من قضية مثارة الى واقع سياسي حاد ، وبعد ان اصيحت « اسرائيل الزعومة » - دولة وعضوا في الامم المتحدة ، واجهت النظم السياسية - في كل ثم بعض - الدول العربية ، هذه القضية بكل مسا في نظرها من تناقض وتنازم فانخذتها ورقة رابحة في الصراع بينها وبين الجماهير العربية ، واذا كان تعداد اشكال المهر السياسي الذي واجهت به النظم السياسية في العالم العربي المسألة الفلسطينية ليس قضيتها ، فان انعكاس هذه الاشكال على الفكر السياسي العربي قد ابعده كثيرا من معالجاته للمسألة عن الرؤية الصحيحة لها ، فاصبحت غير قادرة على تكوين رأي عام يتحرك تحركا حقيقيا تجاهها ، بل ويتحرك احيانا ضد ما هو صحيح وحقيقي .

ونحن نوافق على « ان الكتابة في القضية الفلسطينية ، وتكرار الكلام عنها لا ضرر فيهما البتة » (١) وايضا فانه « اذا كان تكرار القول والكتابة ضارا ومؤذيا في اي موضوع فان ذلك التكرار مفيد وضروري في القضية الفلسطينية ، حتى تظل الكارثة حية في نفوس الامة » . (٢)
ولكن طبيعة التكرار واتجاهه هي المسألة الاساسية امامنا ، فالكتابة في المسألة الفلسطينية ينبغي ان يكون هدفها الاساسي تكوين جماهير عربية ، وفلسطينية قادرة على فهم قضيتها ، والمطالبة بحل سليم لها ، دون انحراف يبعد بحركة الجماهير العربية عن مطالبها ويمنع الوصول الى حل حقيقي لها .

ان المسألة الفلسطينية واحدة من اهم قضايا النضال العربي المعاصر ، وفيها تتكشف بصورة واضحة نكبة العالم العربي بالاستعمار .. وهي بوجودها الحاد تشكل واقعا استفزازيا للقسوى المناضلة ضد الاستعمار العالمي ، ومن هنا فان فهمها خارج اطارها ضياع لطاقت يمكن تجميعها لاداء دور ثوري على المستوى التاريخي .

ازمة فكر انعكاسي لازمة واقع

كان وقوع الفكر السياسي في خطأ « الفهم الديني » هو النتيجة الطبيعية للاوضاع الاقطاعية للعالم العربي عقب الحرب الاولى ، ومسح بداية ظهور المسألة الفلسطينية على مسرح الاحداث .

ان محاولة تفسير المسألة باعتبارها « مسألة اسلامية » هو اول واقرب التصورات التي وضحت وقد ساعد على هذا ان الحركة الوطنية الفلسطينية نفسها قد وقعت تحت قيادة دينية لفترة طويلة وحاولت هذه القيادة ، وما وراءها من مصالح اقطاعية ، صبغ القضية بالصبغة المنهية فتعددت المؤتمرات التي تحاول ان تجعل من القضية قضية المسلمين في جميع انحاء العالم .

والخطورة العامة لعدم فهم المسألة الفلسطينية ، تتولد من ان عدم

اوروبية ما لم تفهم هذه الحقيقة التي لا شك فيها وهي ان اصعبا من الاصابع اليهودية كامنة وراء كل دعوة تستخف بالقيم الاخلاقية وترمي الى هدم القواعد التي يقوم عليها مجتمع الانسان في جميع الازمان فاليهودي كارل ماركس وراء الشيوعية التي تهدم قواعد الاخلاق والاديان واليهودي دوركيم وراء علم الاجتماع الذي يلحق نظام الاسرة بالوضع المصطنع ويحاول ان يبطل اثارها في تطور الفضائل والاداب واليهودي او نصف اليهودي ساربر وراء الوجودية ففتح بها الى حيوانية تصيب الفرد والجماعات بانحطت السقوط والانحلال» ولا يسلم من تحليل العقاد فرويد او انيشتين !! (١٤)

الفكر الشوفيني يقع ايضا في محاباة الاتجاهات اليمينية التعمصية فهو يرى ان « جماعة منظمة تكافح الصهيونية العالمية في الولايات المتحدة تستطيع ان تقهرها وتمحو اثرها ولو لم تبلغ مليوناً واحداً يحاربون خمسة ملايين ، ولقد وجدت الجماعة التي تكافح الصهيونية فعلا اثناء الحرب العالمية الاولى - وهي الجماعة التي اطلقت على نفسها اسم كوكلكس - كلن ku - klux - klane وعاشت بضع سنوات » (١٥) ويتأسى لان « هذه الجماعة القوية وسعت حملتها وشتت الفسار على اعداء اربعة بدلا من عدو واحد ، فجعلت في ههما محاربة الزوج ومحاربة التابعين لكنيسة الرومانية ، ويحاربون الاشتراكيين والشيوعيين ومحاربة اليهود ، ولو انها فصرت محاربتها على الصهيونية لقتضت عليها عنوة » (١٦) والواقع ان الفكر الشوفيني بمنهج ذلك يقع في عدة خطايا .

● فهو يقع في خطيئه الموافقة على ان اليهودية قومية رغم انكاره لذلك احيانا ، وهو يسلم بموقفه ذلك للحركة الصهيونية الاستعمارية باقوى حججها واقفلها ثباتا امام النقاش العلمى .

● وهو بهجومه على اليهودية يعطي دليلا على الاضطهاد العنصري من ناحية ويفقد عطف اليهود المناوئين للصهيونية من ناحية اخرى ، يقول المجلس الاميركي لليهودية « لم يعتبر اليهود جنسا ما في يوم من الايام . وقد كان من الممكن في اي عصر غير عصرنا هذا ، وفي اي بلد غير الولايات المتحدة ان يختاروا شيئا يختلف الى حد ما عن مناصري ديانة معينة فربما كانوا امة او اقلية من المثقفين او جماعة سلالية ، ونحن هنا في الولايات المتحدة وفي القرن العشرين لا نقبل اي تعريفات اخرى لليهودية او لليهود ، فاليهودية دين والمجموعة التي تعرف باليهود يجب ان تكون ويجب ان تعرف كجماعة تتمتع بحرية يفرضها الاختيار الفردي ، فاليهودية بصفتها عقيدة اخلاقية على مستوى عال يجب ان تسمو على الحدود القبلية والقومية ويجب ان تقوم على اساس مبدأ الاختيار غير المفروض » . (١٧) .

وبهذا يقع الفكر الشوفيني في خطيئة استبعاد حلفاء حقيقيين للدفاع ضد الصهيونية في الوقت الذي يتوهم فيه الفكر الديني ملايين الحلفاء الخياليين .

● واستبعاد اليهود الحلفاء من المناوئين للصهيونية يستبعد ايضا القوى التقدمية العالمية والقول بان الصهيونية هي القوة الدافعة للحركة الشيوعية لمجرد وجود بعض اليهود في قيادتها ، فسول ناصح بالجهل ، فضلا عن انه ليس مثالا يؤكد روح الهدم عند اليهود ، والشيوعية قد بنت بلادا يبلغ تعداد سانها اكثر من نصف سكان العالم ، والمثال هنا ينقلب لصالح الصهيونية فالحركة الصهيونية اذا كانت قوة دافعة للشيوعية العالمية فهي اذن حركة بانية وتقدمية الى اخر مدى .

لقد اعلن الفكر الماركسي موقفه من قضية القومية اليهودية منذ بدء ظهوره فكتب ماركس كتابه « المسألة اليهودية » وقال لينين « ان الحركة الصهيونية في جوهرها حركة خاطئة ورجعية بصورة مطلقة ، وان فكرة القومية اليهودية ذات صبغة رجعية سافرة لا بالنسبة لمعتنقيها فحسب بل وكذلك للذين يحاولون خلق انسجام بينها وبين الافكار الاشتراكية » . وقال خروشوف « من غير الصحيح اتهم الشيوعيين بانهم يعملون ضد مصالح الشعوب العربية الوطنية ومن السذاجة ايضا وضع الشيوعية والصهيونية على صعيد واحد . فمعلوم تماما ان الشيوعيين ومنهم شيوعيو اسرائيل يناضلون ضد الصهيونية » . (١٨)

من اصولها ، فالكتب الدينية تحفل بمناقضات بينها وبين بعضها - من وجهة النظر المجردة - ففي الوقت الذي ينكر فيه الموسويون الشريعة العيسوية ، والشريعة المحمدية ، ينكر فيه العيسويون شريعة محمد ، وتعترف الشريعة المحمدية بعيسى وموسى ولكنها تنسخهما ، وعلى هذا فانبات صحة او عدم صحة الوعود الموجودة في التوراة ، يدل على سذاجة فكرية ، فالصهيونيون يستغلون وعود التوراة لاختفاء رغبتهم في تصدير رساميل الى فلسطين . . ومن الحق ان نتفقد ان اقناعهم بزيف الوعود ، يجعلهم ينفذون عن الاستعمار ، ويضاف الى هذا كله ان اي عقل بسيط يدرك انه اذا كان الله قد اعطى الصهيونية العالمية حقا استعمار فلسطين فهو بلا شك اله مزيف !!

والهجوم الديني على اليهودية يعطي فرصة للدعاية الصهيونية لكي تشر قضية الاضطهاد التي تعتمد عليها . .

... ليس هذا فقط ما يعطي الفكر الصهيوني فرصة لتأكيد ذاته ، فالفكر السياسي العربي يخرج من الفهم الديني ليقع فريسة للفهم القومي المتعصب . .



تضع الرؤية الشوفينية المسألة الفلسطينية باعتبارها صراعا بين قوميتين ، وبهذا تقع في خطأ اعتبار « المسألة اليهودية » مسألة قومية ، وهو ما تنفيه احيانا ، وانطلاقا من هذا المفهوم تحاول اثاره البغضاء ضد اليهود متناسية ان اليهودية شيء ، والصهيونية شيء اخر ، ف « النظرية الصهيونية القائلة بان اليهود بصفتهم اليهودية ينتمون الى قومية قائمة بذاتها وعلى ذلك فيجب ان تكون لهم دولة يهودية » (٦) تختلف عن اليهودية نفسها ، فاليهودية دين ، واليهود في أي دولة مواطنون بها « وليسوا اعضاء لجالية يهودية قائمة بذاتها تتميز بمصالحها الدنيوية التي تختلف عن المصالح الدنيوية لرفقائهم الذين يدينون بعقائد اخرى » (٧) ويحاول هذا الفكر تقديم صورة وراثية لليهودي ، وصفات خلقية خاصة به ، فاليهودية عنده هي « ذلك الخلق النعيم الذي تاصل في طائفة من العبريين منذ اقدم العصور وجعلهم بغضاء منبذين في كل مكان اقاموا فيه او دخلوه (٨) » و « خلق العدوان والادعاء والانانية هو داء قديم في هؤلاء القوم لم يفارقه قط في عهد من عهودهم التاريخية ، ولا شك انه ناز ملازما لهم زمنا طويلا قبل ظهورهم على مسرح التاريخ » (٩) واليهودية ايضا « بغيضة الى كل الناس ، بغيضة في كل بلد ، بغيضة في كل زمن ، بغيضة في الزمن الحديث ، لا يجبهها ولا يعطف عليها احد » . (١٠)

وينكر هذا الفكر الحقائق التاريخية عن اضطهاد اليهود ويقرر ان اليهودية « هي المسؤولة عن كل اضطهاد تجره على نفسها وعلى ابناء دينها » (١١) لانها « لو وجدت في عالم الملائكة لما كان لها فيه نصيب اكرم من هذا النصيب » . (١٢)

ويحاول الشوفينيون استغلال العداء للصهيونية - باعتبارها حركة عميلة للاستعمار لاختفاء عدائهم للفكر التقدمي ، ففي تحليلهم ان الصهيونية (قد اشتركت في كل حركة من حركات الهدم والتدمير ، واخر ما اشتركت فيه ولا تزال مشتركة فيه - حركة الشيوعية في العصر الحديث . . وربما كان الصهيوني من اصحاب الملايين ولكنسه يعرض على نشر الشيوعية ويمولها بالمال والدعاية ويواليها بالوسائل والمؤامرات في مجتمع السياسة الدولية ولا حاجة الى اكثر من سرد الاسماء لظهور الايدي الخفية من وراء هذه الحركة في ابانها وليست هذه الايدي الا ايدي الصهيونية العالمية - في كل مكان ، كان رئيس الدولة الشيوعية الاولى في العالم كله زينوفيف وكان رئيس البوليس السياسي ياخودا ، وكان وزير الخارجية لينفينوف ، وكان ترسكي وكابنيف وتومسكي وريكوف وكاجانوفيش على رأس الدولة السوفياتية ، ولينين كان نصف يهودي يسمى ايليانوفتش ومن المعلوم قبل هذا كله ان امام الشيوعية الاول هو كارل ماركس اليهودي) . (١٣)

وليس الشيوعية فقط هي حركة التدمير الوحيدة التي خلقها الصهاينة فالاستاذ العقاد يرى انه « لن تفهم المدارس الحديثة في

والتشرد ، والالام . . واختلطت الحقائق بالاساطير بالاكاذيب تتخلق
ميرانا كاملا من الاحزان .

وهكذا عاشت الاديبة اليهودية في حلم طويل ان تجد العدل فسي
مجتمع يضطهدها - في مكان اشبه بالخرافة هو فلسطين ارض الميعاد
والعدل والسلام وحلمهم هو نفس الحلم الذي يراود المسلم والمسيحي
لمكة او لبيت المقدس ، الحلم القديم الذي يلجأ اليه الذين لا يعرفون
ارضية ازمتههم . .

امتلات مزامير دواود بترانيم العودة . . وغنى لورد بيرون الشاعر
الانكليزي الكبير ، « ان للحمامة البيضاء عشا صفيرا وللثعلب وكسرا ،
ونكل انسان وطنه ، الا اليهود فلهم القبور » .

وفي عيد الفصح . . ومع انتهاء فترة التوبت يتبادل اليهود فسي
جميع انحاء العالم النحية فيما بينهم فالين : « الى اللقاء في اورشليم
العام القادم » . (١٩)

رومانتيكية الحلم . . هي التي حولت اليهودية الى وطن بعدما كانت
دينا !..

ويحفل اسفار العهد القديم . . وهي الكتب الدينية التي يعتمد
عليها اليهود في اثبات دعواهم بان عودتهم الى فلسطين احد الحقوق
التي كفلها لهم « يهوه » او الدب - بالعديد من هذه الوعود ! يقول
الاصحاح الاول من سفر يشوع « وكان بعد موت موسى عبد السرب ان
الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلا : موسى عبدي قد مات
فالان قم اعبر هذا الاردن انت وكل هذا الشعب الى الارض التي انسا
معطيها لهم اي لبني اسرائيل كل موضع بدوسه بطون اقدمكم لكم اعطيته
كما كلمت موسى . من البرية ولبنان هذا الى النهر الكبير نهر الفرات
جميع الحيشين والى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم » .

وثمة ملاحظة هامة لمحمد عزه دروزة فهو يرى ان الاسفار تحفل
بانفاو والمنافضات والمقاومات الكثيرة وان احداث موسى وما بعده قد
دونت سي ظروف مقاربة لحدوثها ويصح ان تكون محل اعتماد وتحفظ ،
فبتداول الروايات شفويا ردحا من الزمن والخيال والتعصب وظروف
الديون كلها كانت ذات تاثير قوي فادى ذلك الى الكثير من المناقضات
والمفارقات والفلو . . . » . (٢٠)

ان احداث الاضطهادات لدينية المتوالية قد ملأت اسفار العهد
القديم بادعاءات وعود خرافية . . وصنعت اخطر من هذا . . حولت
اليهودية من دين الى قومية والخطورة الحقيقية لازمة الاقليات الدينية
والعنصرية هو هذا الخلط بين الدين والقومية ذلك ان الاضطهاد الذي
بلغاه الاقليات ، والذي ينجم ساسا - في الاقليات الدينية - من ربط
المسجد او الكنيسة بالدولة ، ينعكس هذا الارتباط على التشريع وحماية
حق العبادة والضرائب ، وحق توليه المناصب الرئيسية ، هذا الاضطهاد
يتحول الى خلط في الفهم يقرب الدين الى قومية ، خاصة وان
القيادات التي تقدم للدفاع عن حقوق الاقليات كثيرا ما تقع بين برائن
فكرات البرجوازية الصغيرة .

واذا كنا لا ننكر الاضطهاد الديني الذي تعرض له اليهود فاننا
لا نستطيع ايضا ان ننكر « انهم نمتعوا في فترات مختلفة من تاريخ
اوروبا بتأييد بعض الحكومات ونفر من الحكام كما ان الاضطهاد الذي
لقبه اليهود في الفترات التاريخية المضطربة لم يكن ذا لون واحد لا
يتغير : ان رجال الكنيسة الاقطاعية كانوا يوجهون تهما دينية الى اليهود
في العصور الوسطى في حين ان الفريد روزنبرج دعسا الى كرههم
عنصريا » . (٢١)

كذلك يعترف المؤرخون « ان البلاد الاسلامية كانت ممن التسامح
نحو اليهود حتى انهم لم يضطروا كما فعلوا بين غير المسلمين في اغلب

● والفكر التعصبي في يمينته المنحرفة يتجاهل باستمرار الاعداء
الحقيقيين ، بل ويتحالف مع اشد الاعداء ضراوة ، وهذا ما حدث عندما
حاولت قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية التحالف مع النازية خلال
الحرب العالمية الثانية لجرد ان لنازية تضطهد اليهود . وبينما يشن
العقاد الحرب على اليهود ينسى البيونات المالية الضخمة التي تحرك
سياسة الولايات المتحدة لتأييد الحركة الصهيونية ويرى انها تزج
بالدولة الاميركية في « مازق » ! كان المصلحة الصهيونية ليست هي
مصلحة الرأسمالية الاحتكارية في اميركا . .

● ومع افلاس هذا الفكر يحاول ان يناقش قضية عنصرية لليهود
ليحاول دراسة ما اذا كان يهود العالم المعاصر هم سلالة يعقوب حقا ،
ام انهم اصبحوا سلالة مختلطة لا يرتبط بيعقوب بسبب ومحاولة نفسي
صله اليهود بيعقوب محاولة عقيمة ، لانها رغم ظهورها في دعاية الصهيونية
تبعد بنا عن جوهر المسألة الصهيونية الاصيل . . الاستعمار العالمي ،
ولان العرق او السلالة لم يعودا من مقومات القومية .

وليس من الصعب على اي حال ادراك السبب في انتهازية الفكر
السياسي العربي بالنسبة للمسألة الفلسطينية ، فهي انعكاس طبيعي
لوضعية المسألة بين فضايا الصراع في مرحلة ظهورها واهتمام الفكر
السياسي بها ، وهو ما سنعالجه بالتفصيل عند حديثنا عن تناقضات
الواقع العربي المتحركة في مواجهة المسألة .

والمسألة الفلسطينية هي مسألة فلسطين بكيانها الجغرافي
والتاريخي ، وهي مسألة حقوق اللاجئين الفلسطينيين وحقوق الشعب
الفلسطيني ، وهي مسألة الدولة الاسرائيلية ، وهي ايضا واساسا
مسألة الاستعمار العالمي . .

ولربما كان الاغراق في تقديم تفصيلات المسألة جزءا من محاولة
الفضاء على اصولها ونحن هنا - بعيدا عن التفصيلات الا الضروري منها -
نحاول الانطلاق لفهم « اصول القضية » وبمعنى اخر ، جذورها التي
صنعتها التطورات التاريخية ، والاجتماعية ومن الطبيعي ان نفس هذا
الوضع هو الاساس الذي ينبغي - في رأينا - حل القضية في اطاره . .
ونحن امام ثلاث قوم متفاعلة فيما بينها ، وقد شكلت الجذور
الاصيلة للمسألة . . فتحت امام الصهيونية العالمية كحركة تعصبيية
رومانتيكية عن حلم الاقلية اليهودية في الحصول على عدالة فقدوها في
الاضطهادات المتوالية ونحن امام الاستعمار العالمي في مرحلة الامبريالية
اي في مرحلة الازمة الحقيقية لوجوده ومحاولة البحث عن فرص جديدة
نمكنه من لبقاء ونتيح له التغلب على مشاكله ، ونحن اخيرا امام الواقع
الفلسطيني في مرحلة النمو الرأسمالي والانفلات من اسر الاقطاعية ، يتحرك
معه الواقع العربي في مرحلة من ادق المراحل التطورية في حياته .

في داخل هذه القوى ، نصخب الحركة ، وتختف ، تسير هادئة
احيانا مجللة باحزان الوداع والصمت والضيق ، وتنفجر احيانا اخرى
بالقضب الثائر . . والانطلاق الهادر بغير حد .

رومانتيكية عصر الامبريالية

كان « الحلم » هو المؤكبة المستمرة لحركة التاريخ البشري ، وعندما
عجز العلم - في بداية التاريخ - عن تفسير الاشياء ، تكفلت الاحلام
بتفسير غامض ، وظل الحلم بعد ذلك يؤدي وظيفته ، فاصبح سلاحا
رانما للذين لا يعرفون ارضية ازمتهم ، وللذين يحرصون على عدم معرفة
الاخرين لاسباب الازمة .

وكان اليهود بعض ضحايا « الحلم » . وعندما دارت محاربت
الرومان في بيت المقدس تزل ارض الشمائر الدينية لليهود . . وتحطم
احلامهم البدائية الساذجة ، ثم نظدهم مشردين ، هائمين على وجوههم ،
التقط العقل البشري الحائم قصة اليهودي التائه كتعبير ممتد عن الضيق

مدن أوروبا من ان يعيشوا في حي خاص مظلم قدر غير صحي » . (٢٢)
وينبغي هنا أيضا ان نشير الى ملاحظتين هامتين :

● ان التحليل القائل بان اضطهاد اليهود ناتج اساسا وبسلا اي اسباب اخرى « لنفسية اليهودي » و « لروح التدمير الكامنة فيه » تحليل غير علمي ، فانزال اليهود في احياء خاصة مظلمة قدرة كان احدى نتائج الاضطهاد الديني وليس سببا فيه ، واشترك اليهود في المجتمع كان ينتهي بسرعة في حى اضطهاد جديد يقول هرتزل في كتابه « الدولة اليهودية » ان اليهود يمكن ان يندمجوا في الشعوب التي يحيون بين ظهرانيها لو انهم تركوا في سلام مدى جيلين كاملين ولكن الفرصة لا تتوفر لهم .. ، كذلك فان اشتراك اليهود في الثورات كان دليلا على حيويته ، ودليلا ايضا على مدى تطرف الاضطهاد الذي كانوا يعانونه ، وكانت هذه الثورات كما كان السكن في احياء خاصة - سببا ونتيجة للاضطهاد .. وفي التاريخ الاسلامي اشترك اليهود في ثورة القرامطة في العصر العباسي الثاني وفي ثورة الزنج وهما ثورتان تحريرتان فادهما الفلاحون ضد اقطاع الدولة العباسية .

● ان القول بان اضطهاد اليهود كان بسبب الدين فقط قول مغالى فيه ، صحيح ان الدين اليهودي كان موضع اضطهاد في بعض العصور وخاصة من الدين المسيحي الذي يعتقد اتباعه ان اليهود هم قتل السيد المسيح وان عليهم يقع دمه ففي الانجيل (فلما رأى بيلطس انه لا ينفع شيئا بل بالحري يحدث شغب اخذ ماء وغسل يديه قدام الجميع قائلا ، اني برىء من دم هذا العار . ابصروا انتم فاجاب جميع الشعب وقالوا دمه علينا وعلى اولادنا ، حينئذ اطلق لهم باراباس ، واما يسوع فجلده واسلمه ليصلب) وفي صلاة الجمعة الحزينة يتردد قول « فلنصل من اجل اليهود الفدارين » فالقاضي الروماني الذي حاكم المسيح قد برأه من التهم الموجهة له من اليهود . وقال اني برىء من دم هذا البار ، وعلى هذا لا يمكن تحميل غير اليهود المسؤولية . واذا كان القاضي لم يملك الا ان يسلم المسيح للفوضى فانه لم يستطع تحميل مسؤولية قتلته ظلما ، ورد اليهود على القاضي كان حاسما بتحميل انفسهم وابنائهم هذه المسؤولية التاريخية بقولهم « دم علينا وعلى اولادنا » كما ان اضطهاد اليهود للمسيح امر لا يمكن انكاره بحال من الاحوال ويكفي ما صوره الانجيل في قوله ، فعروه والبسوه رداء قرمزيا وضفروا اكليلا من شوك ووضعوه على راسه وقصة في يمينه ، وكان يجثون قدامه ويستهنون به قائلين السلام يا ملك اليهود ، وبصقوا عليه واخذوا القصبه وضربوه على راسه . (٢٣)

واذا كانت الجمهرة المسيحية قد وقعت ضحية هذا الوهم فان حملات اضطهاد اليهود التي كانت تمارسها اجهزة الدولة كانت تستتر بستار ديني ، مخفية وراءها اسبابا اخرى ، هي التناقضات الحادة التي تعيشها هذه النظم ، ومحاولتها الدائبة لالهاء جماهيرها .

وتاريخ اليهود المعروف يدل على ان القبائل اليهودية عاشت معيشة قبلية متنقلة في الفترة التي كان فيه تطور المجتمعات لا يسمح بوجود فئة تجار خاصة في كل منها ، فبرعت القبائل العبرانية في التجارة ، حتى استقرت في فلسطين ، وكان موقعها الجغرافي اذ ذاك يجعل منها مركزا تجاريا ناميا ، وفيها نمت تجارة العبريين (٢٤) وازدهرت والتصفت بهم التجارة كوظيفة خاصة بهم وانتشر كبار تجارهم عقب الغزوات المتتالية التي مرت على هذه المنطقة من بلاد العالم ، وبقي صفار التجار فيها ، وفي المراكز التجارية التي هاجروا اليها اتى اليهود « بشكل ارقى من اشكال الاقتصاد المالي والتجاري بسبب خبرتهم الطويلة وعلاقتهم بعضهم ببعض تلك العلاقات الاقتصادية التي كانت ترسخها العقيدة الدينية ، فاليهود مثلا هم الذين اخترعوا النظام الذي يسمح لشخص معين بأن يأمر شخصا آخر بدفع مبلغ ما الى شخص ثالث وهو النظام الذي يطبق يوميا الى الان في العلاقات التجارية والمالية » (٢٥)

وبانتقال المجتمع الاوروبي من نظام الاقتصاد العبودي الى النظام الاقطاعي من اليهود بمرحلتين :

● في المرحلة الاولى حتى القرن الثالث عشر وهي المرحلة التي تطور فيها شكل الملكية في المجتمع واعدت توزيع الاراضي التي استولى عليها الغزاة ، كما تمت عمليات التقسيم داخل الدولة بتحول السيد الاقطاعي الى شخصية مستقلة عمليا «فاصبح يقيم في املاكه على اقتصاده المفلق ويتمتع بحق وجود اتباع يعملون تحت امرته وهو يعيش على عمل فلاحين » (٢٦) . كان هذا اساس اقامة اليهود في احياء خاصة « وليس هذا بغريب بالنسبة للحياة الاقطاعية فقد كان تقليدا هاما ان يستأجر الاجانب باحياء خاصة للفلسطينيين وللهولانديين حي ايضا ، ولبرتغاليين حي ثالث وهكذا » (٢٧)

وقد ظل الحي الخاص او « الفيتو » هو رمز المجتمع اليهودي بفعل الاضطهادات المتوالية ..!

في هذه المرحلة ايضا نمت التجارة ، فقد كانت العملة تنقص التجارة ، ثم خلقت الحاجة انواعا من العملة ، ولم تكن هذه الانواع كلها كاملة القيمة اي انه كثيرا ما كانت كمية النحاس او القصدير اكبر من المعدن الثمين ، ونظرا لاختلاف العملات فقد عادت مهنة الصرف من جديد ثم تحول الصرافون الى اصحاب بنوك بطريقة مماثلة . (٢٨)

« ويتطور الاقتصاد الاقطاعي انتقلت المراكز الاقتصادية من شواطئ البحر الابيض الى بلاد أوروبا الغربية فانتقل اليهود بانتقالها ، وظهروا في باقي المدن الفرنسية وفي انجلترا ومانيا وهولندا يأتون اليها بخبرتهم التجارية الواسعة التي يتوارثونها جيلا بعد جيل وعلينا ان ننصو التاجر اليهودي في هذه العصور بشكل تاجر صغير وسيط او مراب ، كما ننصوه الان في الغالب ، فقد كان اليهود في ذلك الوقت ذوي اتصال مباشر بالانتاج ونقل البضائع وتخزينها » . (٢٩)

وفي نهاية هذه المرحلة ، بدأ المجتمع ينتقل تدريجيا الى الرأسمالية، وبدأ التناقض في العلاقات الاجتماعية بين الاقطاع والبرجوازية يأخذ شكل الازمة ، فقد كانت التجارة تحتاج الى الائتمان « ولكن الكنيسة كانت تدين الافتراض بفائدة باعتباره نوعا من انواع الربا ، وكانت هذه الادانة تستند الى اعتبارات دينية وخلقية غير انها كانت في الواقع دفاعا عن الملكية العقارية التي تهددها سلطان النقد المتزايد ، وتاما كما ناهضت الكنيسة بشدة حركة تحرير المدن التي تهدد سلطة الاساقفة اعترضت ايضا على المؤسسات التجارية اذ رأت فيها وبحق عنصرا متحركا ثوريا ، ولكن القنضيات الاقتصادية اقوى من القواعد الاخلاقية فاستخدمت مختلف الوسائل للحيل على المحظورات الدينية : ومن المظاهر الغريبة لهذا الكفاح من اجل التقدم التجاري الدور الذي قام به اليهود ، اذ كان من حقهم الا يتقيدوا بهذه المحظورات الدينية بسبب دينهم ، وهكذا اصبحت - القروض بفائدة مسموحا بها » . (٣٠)

وهكذا اضطهدت الكنيسة المسيحية اليهود دفاعا عن مصلحة كبار الملاكين العقاريين .. وحاربتهم ، واخرجت من الكهوف الاقوال القديمة للانجيل !!

وفي القرون الثلاثة الاخيرة من عصر الاقطاع ، وهي القرون التي شهدت « تطور المجتمع الاقطاعي حيث ظهرت بوادر العلاقات الرأسمالية، هذه الفترة من العهد الاقطاعي رأت نشوء طبقة التجار غير اليهود ، طبقة فرنسية في فرنسا ، وهولندية في هولندا واسبانية في اسبانيا .. الخ وكان طبيعيا ان تصطم هذه الطبقة الناشئة بالفئة اليهودية الخاصة التي تنافسها ، لذلك اشتهرت هذه الفترة بالحركات الواسعة النطاق التي كانت ترمي الى ابعادهم من تداول السلع وفصلهم عن عمليات الانتاج المباشرة .

وهنا بدأ يؤس اليهود وتحولهم من تجار ومالين ميسورين الى وسطاء صفار لا يكادون يعيشون الا عن طريق المهن الصغيرة ، وهنسا ايضا بدأت تنقلات اليهود الفلقة من اقصى أوروبا الى اقصاها لا يمكنون في بلد من البلاد فترة وجيزة الا وتقوم ضدهم القومات الدموية فيرحلون الى بلد اخر وهكذا . «

لقد تحولت البرجوازية في فترة نموها الى سرقة صريحة تهدف الى « انتزاع كل ما حققه اليهود تدريجيا من ارباح بضرية واحدة ، وهذه

الروح الخبيثة تجاه العمليات التجارية التي كان اليهود يقومون بها في العصور الوسطى ، تعتبر احد المصادر الرئيسية التي نبع منها التعصب ضد اليهود ، ويقر كالميت ذلك اذ يقول « ان خوف الرأي العام فسي العصور الوسطى من اقتراض المال ، ذلك الخوف غير المعقول هو الذي خلق في وقت واحد ميل اليهود للشؤون الاقتصادية والشعور العدائي نحوهم » (٣١)

ثم كان تطور المجتمع في المرحلة الرأسمالية ، عندما استطاعت البرجوازية ان تحقق ثورتها ، ونما فكرها ، وارتفعت صيحات فولتير وديدرو وروسو تنادي بالحرية ، وكانت تلك بداية « الفترة التي هضم المجتمع فيها اليهود ، فلم يعودوا يكونون فئة اجتماعية خاصة منفصلة عن بقية الطبقات الاجتماعية ، وبهذا الشكل اصبح التاجر اليهودي والمصرفي اليهودي لا يختلفان في شيء عن التاجر او المصرفي الكاثوليكي او البروتستانتي بعد ان اقرت الثورات المختلفة في انجلترا والولايات المتحدة وفرنسا مساواة الاديان امام القانون . وبتحرير اليهود وجد منهم لوردات « مونيفيوري » رؤساء وزارات يهود « دزرايلي » « بلوم » وبذلك اندمجوا في أوروبا الغربية وامريكا بسائر الفئات البشرية » . (٣٢)

وظهرت في القرن التاسع عشر ، محاولات لفهم المسألة اليهودية في ضوء جديد وكان بعضها بطبيعة المرحلة بعيدا عن الرؤية المنطلقة للمسألة بأكملها ، وعندما طالب اليهود الالمان بالتححر السياسي ، كانوا يعبرون - كما يرى بوير - عن اصلب شكل من اشكال التعارض بين اليهودي والمسيحي وهو التعارض الديني . وهتف بوير : ان علينا حل التعارض بجعله مستحيلا وعندما لا يرى اليهودي والمسيحي في الدين الخاص بكل منهما الا درجات مختلفة من تطور العقل البشري والوجود افاع تتجرد منها الاقوى التي هي الانسان فلن يجدا نفسيهما من بعد في تعارض ديني ، وانما في علاقة نقدية بحثة ، علاقة علمية بشرية .

ويلاحظ ماركس - بفكر مضى - ان بوير خلط بين الدين والدولة وان الاساس في الاضطهاد الديني لليهود هو اساس دينوي بحث ، وان التححر اليهودي جزء من التححر الاجتماعي للمجتمع البشري بأكمله وان الفاء الدين ليس هو الحل الذي يقضي على بقية التناقضات التي تخلق اضطهاد اليهود .

هكذا استطاعت الثورة البرجوازية في أوروبا ان تقضي على احد اشكال اضطهاد - اليهود مؤقتا فسقطت جدران الفيتو الكئيبة التي الابد وبالرغم من رد الفعل الذي حدث للثورة الفرنسية بعد سقوط نابليون فان الرجعية لم تشمل على وجه العموم ما ناله اليهود من حقوق في الحرية والمساواة ، اذ خرج اليهود من احيائهم وخرجوا كذلك من ازيائهم التقليدية فأصبحوا يلبسون اللبس الاوروبي العادي » (٣٣) الا ان هذا لم يستمر على اطلاقه ، فقد كانت الرأسمالية تتحول تدريجيا الى عدو مقيت ، طفيلي الى اقصى حد ، اناني الى حد الموت ، كانت الامبريالية في الطريق ، وكانت العفونة تشع من علاقات الانتاج في بعض الدول ، وكان تقسيم الاسواق يظهر كمشكلة والضغط يزداد على الجماهير عنيقا قاتلا ...

ان تطور المجتمع الى الامبريالية خلق الحاجة الى حلم قديم بيعت من جديد ، يحول ابصار الشعوب ، ويخلق حلا وهميا للازمة ... ازمة الامبريالية مع شعوبها .

وبعث الحلم الرومانتيكي القديم ... الذي كان يمكن ان ينسى لولا ان الاضطهاد لم ينته . كانت الحركة الصهيونية الحديثة هي رومانتيكية عصر الامبريالية !

تبلورت الصهيونية في القرن التاسع عشر كعدوة سياسية منظمة تتحرك بقوة ... وبنظيم وبحركة قادرة على استفزاز جماهير اليهود ... كان « تيودور هرتزل » الصحفي النمساوي هو اول من اعطى اشارة البدء كان هرتزل مواطنا نمسويا يهوديا ، وهو كغيره من مثقفي اليهود يعتبر تلك الوعود التي تمتلئ بها الثورة مجرد احلام مستحيلة التحقيق ، حتى وقعت قضية دريفوس وهو ضابط فرنسي اتهم بالخيانة وصدر عليه

حكم بالاشغال الشاقة المؤبدة وتجريده من رتبته العسكرية وقصد اتهم ظلما وقيل ان يهوديته هي التي تحكمت في ضمير القضاة - ودل تحليل هذه القضية عند هرتزل على ان هناك حركة رجعية في فرنسا توشك ان تقضي على تمتع اليهود بالحقوق المدنية التي حصلوا عليها تطبيقا لشعارات الثورة البرجوازية واصدر هرتزل كتابه « دولة اليهود » ..

وكتاب هرتزل تعبير عن الرؤية الضبابية التي لم تستطيع فهم ابعاد المسألة اليهودية ، فهو قد افترض ان اليهود قومية وبني قضية على هذا الاساس الواهي كما انه لم يستطع ان يفسر اضطهاد اليهود ..

الا ان كتاب هرتزل قد رفع القضية الى المستوى السياسي ، خاصة وحركات - الاضطهاد كانت قد بدأت ترفع رأسها من جديد ، وكانت ثمة حركات حاولت قبل ذلك ان تمهد لاستعمار فلسطين كان اهمها حركة عشاق صهيون . ونجح هرتزل في عقد اول مؤتمر صهيوني في بال خلال عام ١٨٩٧ ، لمدة ثلاثة ايام شهده اكثر من مائتي مندوب يمثلون الهيئات اليهودية العالمية .

ولم يرد ذكر فلسطين كارض محددة في كتاب هرتزل ولكن المؤتمر قرر ان يحدد هدفه بوضوح . كانت الحركة الصهيونية ، وقمتها مقررات بال ، هي « رد اليهود في القرن التاسع عشر والقرن العشرين على ما اصابهم من اضطهاد على ايدي امبراطورية النمسا والمجر والمانيا وفرنسا وروسيا » (٣٤) وكانت ايضا انعكاسا « للوطنية السياسية التي قويت في جميع دول أوروبا اثناء القرن التاسع عشر وجعلت كل امة تصبو الى الوحدة القومية والى السيادة على افرادها فسي حدود دولة مستقلة » . (٣٥)

كانت اساسا « حركة الهروب النفساني للطبقات المتوسطة من اليهود ، وهي حركة استلزمها - من ناحية زيادة تنظيم الرأسمالية العالمية واندماج الرأسماليين اليهود فيها ، كما استلزمها من ناحية اخرى ، زيادة التنظيم العمالي واندماج العمال اليهود فيه . فلقد قضت الثورة الصناعية على اغلبية الطبقة المتوسطة ومنهم اصحاب الحرف وصغار المولدين اليهود ، بينما قضت الثورة الاشتراكية على احلام تلك الطبقة فسي الاستقلال او الاستقلال ، وبين مطرقة الرأسمالية الاحتكارية وسندان الاشتراكية احسست الطبقة المتوسطة اليهودية - كما احسست جميع الطبقات المتوسطة الناشئة بضرورة ايجاد مهرب لها ما لبث ان اتخذ الطابع القومي والمطالبة بالنسبة لليهود - بوطن قومي - بعيدا عن الرأسمالية المنظمة وبعيدا عن الاشتراكية المنتصرة » . (٣٦)

لقد انتهت الصهيونية في القرن التاسع عشر الى صورة جديدة .. صورة القومية !

والحركة الصهيونية عندما تعتبر اليهودية قومية تقع في خطأ فهم ساذج لمعنى القومية ولكنها اليوم ، تؤكد هذا الخطأ بمعمونة الاستعمار العالمي ، الذي راي في خرافية الحلم الصهيوني وسيلة تتيح له استعمار منطقة الشرق العربي ، واقامة قاعدة في هذه المنطقة من العالم .

واذا كان هناك ما يسمى « قومية يهودية » فان هناك بالتالي بما يسمى « امة يهودية » ! والامة « جماعة ثابتة من الناس ، تالفت تاريخيا ، ونشأت على اساس اربع علائم اساسية مجتمعة هي : اللغة ، والارض ،

مكتبة عبد القيوم

زوروا مكتبة عبد القيوم ببورتسودان تجدوا

احدث المطبوعات العربية ، وكذلك مجلة

الاداب البيروتية ومنشورات دار الاداب .

الحياة الاقتصادية ، والتكوين النفسي الذي يتجلى في خصائص الثقافة الوطنية . ووجود جميع العلامات المشار إليها آنفا مأخوذة معا يعطي وحدة تعريف الأمة ، لأن اية علامة من هذه العلامات ، اذا اخذت بمفردها لا تكفي لتعريف الأمة » . (٢٧)

وهذا التعريف للأمة يتضمن شرطا أساسيا هو « جماعة ثابتة من الناس » لها علامات اربع محددة ومرتبطة بعضها البعض ، اولها الارض فهي التي يمكن ان تخلق حالة الثبات للجماعة ووجود جماعة ثابتة على ارض محددة ، يخلق لفة واحدة وحياة اقتصادية ، وتكوين نفسي ويلاحظ ان العلامات الاربعة ينبغي ان تتوفر بأكملها ..

وثبوت الجماعة هو الأساس « فالأمة ليست اوزاعا عرضية ولا سريرة الزوال ، بل جماعة اناس ثابتة » ولا ينطبق ثبوت الجماعة على اي « اوزاع جموع عرضية ضعيفة الترابط فيما بينها تنفرد وتلتئم تبعا لنجاحات او هزائم هذا الفتح او ذلك » (٢٨)

والارض هي الرابط الذي يجمع الجماعة ويخلق حالة الوحدة لدى افرادها . اما « الحياة الاقتصادية المشتركة فتفترض وجود علاقة اقتصادية تجمع مختلف اقسام الأمة في كل واحد ، وتنشأ هذه العلاقة بفضل انقسام العمل ، وتطور التبادل وخلق سوق وطنية وتطور طرق المواصلات » (٢٩) ، واللغة هي وسيلة الناس للاتصال فيما بينهم في المجتمع « ولغة امة ما او شعب ما هي شكل من اشكال الثقافة الوطنية تظهر في خصائصها المميزة خصائص التكوين النفسي لأمة معينة ، وتميز الأمم بعضها عن بعض لا بشروط حياتها وحسب ولكن بمظهرها الروحي . ان الخصائص التي تميز مظهر الأمم الروحي وتكوينها النفسي ونعني بها خصائص الطابع القومي تتكون في الأمم خلال اجيال » . (٤٠)

والقومية بمعناها هذا قد ظهرت كحركة قوية في مرحلة التطور الرأسمالي في « عهد تنهار فيه الاقطاعية ونظم الاستبداد المطلق ، وهو العهد الذي ينشأ فيه مجتمع ودولة ديمقراطيان برجوازيان ، وتصبح فيه الحركات الوطنية لأول مرة حركات جماهيرية يدفع تيارها جميع سكانها نحو السياسة بمختلف اشكالها » (فما يميز هذا العهد في كل دولة هو) انطلاق الحركات الوطنية التي يعترف تيارها طبقة الفلاحين - أي الطبقة التي تضم أكبر عدد من السكان والتي يصعب دفعها الى الحركة - وبشكل يتفاعل معه النضال في سبيل الحرية السياسية بصفة عامة وفي سبيل حقوق القومية بصورة خاصة « (٤١) » فالدولة القومية هي القاعدة والنموذج في النظام الرأسمالي « (٤٢) » لان « الدولة القومية بالنظر إليها من ناحية العلاقات بين الأمم تخلق أفضل الشروط القومية بالنظر إليها من ناحية العلاقات بين الأمم تخلق أفضل الشروط التجزئة الاقطاعية وعلى يد الدولة البرجوازية والتي خلقت الوحدة الوطنية ، ومن المهم هنا ان نشير الى امرين :

١ - ان الأمة غير الدولة ، فالدولة لا تمثل مطلقا « قوة مفروضة من الخارج على المجتمع كما انها ليست البنية « واقع الفكرة الاخلاقية » او « صورة العقل وواقعه » كما يدعى هيجل الدولة نتاج للمجتمع في مرحلة من مراحل تطوره وهي تشكل الاقرار بان هذا المجتمع قد تعثر في تناقض مع نفسه ممتنع على الحل ، انه انقسم الى متضادات لا يمكن مصالحتها ، متضادات يعجز عن التخلص منها ، ولكنه اصبح من الضروري - كيلا تلتهم هذه المتناقضات هذه الطبقات المتناقضة المصالح ، بعضها بعضا ، وتلتهم المجتمع في صراع مجذب - وجود قوة تخفف من حدة النزاع باقامة نفسها فوق المجتمع ظاهريا وتحفظه في حدود « النظام » هذه القوة المنبثقة عن المجتمع ، لكن الواضحة نفسها فوق المجتمع ، المتباعدة أكثر فأكثر عنه ، هي الدولة « حقيقة الدولة اذن » جهاز طبقي للسيطرة ، جهاز اضهاد طبقة لطبقة أخرى ، هي خلق « نظام » يعطي هذا الاضهاد صفة المشروعية ويثبت اركانه مخففا اثناء ذلك من حدة الصراع الطبقي » (٤٤) ، اما حقيقة الأمة فهي عدة طبقات متصارعة تتحد في علامات اربع ذكرناها . ومن البديهي ان الدولة لا تنشأ قبل نشوء الأمة . والدولة البرجوازية عند نشوئها كانت البشر باظهار القومية وتجميع الأمة .

٢ - ان ظهور شروط وعلامات القومية في الأمة من الأمم ، يعني حق هذه الأمة في تقرير مصيرها « وليس هناك من الوجهتين التاريخية والاقتصادية سوى معنى واحد هو حرية تقرير المصير السياسي ، أي الاستقلال كدولة اي انشاء دولة قومية » (٤٥) ، « فالقصد بحرية الأمم في تقرير مصيرها ، هو انفصالها كدول عن مجموعات قومية اجنبية ، هو تأليفها دولا قومية مستقلة » . (٤٦)

وعلى ضوء هذا فان التسليم بأن اليهود قومية يستلزم التسليم بحق اصحاب هذه القومية في انشاء امة مستقلة سياسيا لهم ، ولكن هذا الحق اذا طبق ينبغي ان يطبق في اطار التقسيمات الجغرافية الموجودة في العالم ، فاذا كان يهود اميركا يشكلون قومية ، فمن حقهم ان ينفصلوا عن اميركا بقطعة الارض التي يقيمون عليها ويشكلوا دولة ، وبهذا يكون عندنا « دولة يهودية امريكية » ودولة يهودية فرنسية .. وثالثة اسبانية ، الخ .. الخ اما ان يتكلم يهود العالم للاستيلاء على امة لها سكانها - فلسطين - فان هذا يتنافى بلا شك مع حق تقرير المصير .

وعلى اي الاحوال ، فان التسليم بان اليهود قومية ، تسليم بقضية يعوزها الدليل العلم ي..

● فاليهود لم يكونوا ابدا جماعة ثابتة من الناس ، فمنذ قروض الرومان الدولة التي انشأوها في فلسطين تشرذموا في انحاء العالم ، صحيح انهم في بعض الدول التي هاجروا اليها قد اقاموا في احياء خاصة بهم ، ربما اخذت نوعا من الثبات ، ولكنهم كمجموعة بشرية منتشرة في العالم لم يكونوا ابدا في شكل الجماعة الثابتة .

● واليهود كذلك ليس لهم لفة مشتركة ، والعبرية ، لفة ميتة لم يكن يستخدمها منهم سوى رجال الدين ، ولولا ان حركة بعث العبرية قد اقترنت بالدعوة الصهيونية لاندثرت هذه اللغة تماما ، وقد استخدم اليهود لغات الدول التي اقاموا بها واتقنوها . وما زالت مشكلة ازدواج اللغة هي احدى مشاكل اسرائيل اليوم . ويضاف الى هذا ان بعد اللغة العبرية عن الاستخدام قد بعد بها عن ان تكون لفة اجتماعية معبرة تعبيراً تاريخيا عن كل احتياجات المجتمع النفسية والفكرية والاقتصادية ، فهي لفة ميتة كالهيروليفية واللاتينية القديمة .

وصحيح ان اليهود لهم سمات اقتصادية مشتركة ، فهم يعملون كمصرفيين او مرابين او غيرها من أنشطة المجمع الاقتصادية ، لكن هذا لا يعني وجود حياة اقتصادية مشتركة ، فالحياة الاقتصادية المشتركة هي علاقات انتاجية تظهر في انتاج واستهلاك طبقات المجتمع ، وليست تابعا خاصا ..

● وحرص اليهود على الاحتفاظ بتقاليد معينة ، هو حرص على تقاليد دينية ، وهو ما نجده عند المسلمين في انحاء الدنيا مثلا - وليس تابعا نفسيا مشتركا ، فموت العبرية كلفة قد امانت ثقافتها ، وهي الأساس في تكوين الطابع النفسي المشترك .

● كذلك فان الاحتجاج بوعود سلالية او الهبة ، احتجاج سقط تاريخيا ، ولم يعد يجدي الرد عليه ! ان اليهود قد فقدوا الرؤية الحقيقية لمشكلتهم عندما حولوها الى قومية .



« ان قومية اليهودي الوهمية هي قومية التاجر ، قومية رجل المال » (٤٧) ، فالحركة الصهيونية قد وقعت فريسة لامنيات الرأسمال الاحتكاري ، وليس من الجدي ان تبحث عن سر اليهودي في دينه ، فلنبحث عن سر الدين في اليهودي الواقعي ، ما هو الاساس الديني لليهودية المصلحة العملية ، والمتشعة الشخصية ، اذن فالعهد الحاضر بتحرره من التجارة والمال وبالتالي من اليهودية الواقعية والعملية ، انما يحرق نفسه ايضا - والتنظيم الاجتماعي الذي يلغى الشروط الضرورية للتجارة ، وبالتالي يلغى امكانية التجارة سوف يجعل وجود اليهودي مستحيلا . والضمير الديني اليهودي سوف يتلاشى مثل بخار نافه في جو المجتمع الحقيقي ومن جهة اخرى فاليهودي منذ ان يقر ببطلان جوهره العملي ويبدل جهده لالغاء هذا الجوهر ، يحاول الخروج مما كان تطوره حتى ذلك الحين

ويعمل للتحرر البشري العام ، ويتحول نحو اسْمى تعبير عملي عن التخلي البشري عن الجوهري » . (٤٨)

ان الحل الحقيقي لمشكلة اليهود « يستوجب ان يشترك اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها مع قوى هذه المجتمعات التي تناضل للقضاء على الرجعية ذلك » ان القضاء على الاضطهاد العنصري والديني لا يمكن ان يتم بدعوة عنصرية ودينية ولكن فقط بضال ضد النظام الذي يقوم على اسس الاضطهاد العنصري والديني » . (٤٩)

ان القيادة الصهيونية لم تفهم هذه الحقيقة واندفعت كمخلب قط للاستعمار العالمي لكي تستعمر فلسطين !

منذ مؤتمر بال وحتى اعلان قيام دولة اسرائيل - كتحقيق للمخطط الصهيوني - بدأت الحركة الصهيونية - بمعونة القوى الاستعمارية ، تنفذ مخطتها لاحتلال فلسطين .

١ - بدأت بتصدير الرساميل الى هناك ، وهي الحركة التي بدأها المليونير اليهودي روتشيلد بتشجيعه جمعية « احباب صهيون » وشراؤه الاراضي الزراعية لها ، وبين عام ١٩٢٠ - ١٩٤١ هاجر الى فلسطين ٢٢٥٠٠ يهودي ادخلوا معهم ١١٥ مليون جنيه ، وقد ارتبطت هذه الرساميل المصدرة باؤسستات الصهيونية الكبرى التي انشأها الرساميل اليهودي في فلسطين مثل الكارن كايبت او « الصندوق القومي لشراء الاراضي ووقفها على الشعب اليهودي » وقد تأسس كشركة في عام ١٩٠١ وبلغت الاراضي التي يملكها في سنة ١٩٣٧ ما يقرب من ٣٨٥ الف دونم اي حوالي ٣٪ من الاراضي التي يملكها اليهود . واسس هرتزل سنة ١٨٩٨ - في المؤتمر الصهيوني الثاني - « الترسست الاستعماري لليهودي » برأسمال يبلغ مليونين من الجنيهات لتقديم الاعتمادات اللازمة للحركة الصهيونية على اساس تجاري . وقد انشأ هذا الترسست بنسك الانجلو - فلسطين في عام ١٩٠٠ برأسمال ١٠٠ الف جنيه ، وعند اعلان الحرب الاولى بلغت ودائمه ٢٥٠ الف جنيه ، وارتفع مجموع عمليانه الى خمسة ملايين جنيه ، وساهمت الوكالة اليهودية فسي مشروعات انجليزية في فلسطين مثل الاتحاد الكهربائي لفلسطين ، وفي مشروعات أمريكية مثل الاتحاد الاقتصادي لفلسطين في نيويورك . والاتحاد الكهربائي فرع من الترسست الانجليزي العالمي جنرال اليكريك ، وهو من اغنى المؤسسات الاحتكارية .

وقد ساعدت سلطات الانتداب هذا الرساميل الوافد على انتزاع الاراضي من الفلاحين العرب في فلسطين ، كان الفلاحون مدينين للبنك العثماني الزراعي بالعديد من الضرائب والقروض ، فالفست سلطات الانتداب البنك وطالبت الفلاحين بتسديد ما عليهم ، وارهقتهم ، وكان الرساميل اليهودي بالرصاد لدفع الديون وشراء ارض الميعاد ، كما ان صك الانتداب نفسه قد اباح للسلطة المنتدبة حق بيع اراضي الدولة لليهود .

٢ - كذلك تضمنت الخطة الصهيونية انتزاع اقصى ربح من فلسطين ، ولما كان العمال العرب في فلسطين ارحص اجرا بطبيعة التخلف الذي كانت تمر به فلسطين ، فقد حاول رأس المال الوافد استغلالهم ، ولكنهم رفضوا التعامل مع اليهود ، يقول دولشين رئيس الشعبة الاقتصادية في الوكالة اليهودية « لقد اعتادت الوكالة اليهودية ان تهجر الى اسرائيل اليهود الفقراء حتى تستطيع ان تقذف بهم الى الصحراء والى مستعمرات الحدود ، وكذلك اعتادت ان تهجر اليهود الاثرياء الذين يستطيعون استثمار اموالهم ويستطيعون العيش من الربا وما يحصلون عليه من فوائد وعائد هذه الاموال » . (٥٠)

ولقد كانت الحركة الصهيونية تدرك منذ البداية ان تصدير الرساميل وحده لا يكفي لتحويل فلسطين الى امة يهودية ، فحرصت على ان تدعم وجودها في فلسطين بشعب ومن هنا بدأ تصدير الشعب اليهودي الى فلسطين ، وارتفع شعار ان فلسطين « وطن بلا سكان فيجب ان تعطى لشعب بلا وطن » ، وبمعاونة سلطات الانتداب بدأ تصدير الشعب ، ففي الفترة من ١٨٨٢ الى ١٩٢٠ كان عدد المهاجرين اليهود حوالي ٢٠٠٠٠٠

نسمة ، ارتفعوا من (١٩٠٤ - ١٩١٤) الى ٤٠٠٠٠ ، بينما بلغوا فسي الفترة (١٩١٩ - ١٩٤٩) حوالي ٤٥٢ الف نسمة .

٣ - ولحماية نفسها بدأت القوى الوافدة تشكل جيشها ، كانت تدرك انها قد تقع في تناقض مع الاستعمار ، فضلا عن انها قدمت بطريقة وحشية من اصحاب الارض الحقيقيين وبدأ الجيش بداية متواضعة من خفراء المستعمرات اليهودية المنزلة الذين كونوا « الهلجانا » او قوة الدفاع » ، ونمت قوتها بنمو الوافدين حتى تحولت الى منظمة عسكرية كبيرة اصبح لها مصانعها الحربية وقواعدها المجهزة ، وفروعها في دول العالم - امريكا واوروبا - تشتري منها الاسلحة ، وانشق من الهاجانا وهي الجيش الام قوى اليمين المتطرف في عام ١٩٣٧ لتنشئ المنظمة العسكرية الوطنية لاسرائيل - ارجون زفاني لقومي لاسرائيل - ثم انفصل عنها اليمينيون الاكثر تطرفا لينشئوا فسي عام ١٩٤٠ منظمة المدافعين عن حرية اسرائيل وهي المعروفة باسم عصابة « شتيرن » .

واتحدت هذه القوى خلال الحرب الثانية ، ثم تحولت بعد ذلك وعند اعلان مولد اسرائيل الى جيش اسرائيل النظامي .

٤ - وكان خلف هذا كله .. الاستعمار العالمي بقواه الرهيبة ، فهو الذي اصدر صك الانتداب ، وهو الذي سهل لليهود انشاء وطنهم القومي ، وهو الذي حرص على ان تظل الحركة الصهيونية تحت حمايته حتى بعد انشاء اسرائيل ، وهو - متعاوناً مع الرجعية العربية - الذي خلق ضباباً حول المسألة باكملها بحيث نفخ باستمرار في نار التعصب القومي والديني فمنع حلولاً ، وحال دون الوصول الى بوارق آمال ، ولم يكن في هذا يعمل لحساب الرجعية العربية او الرجعية الصهيونية .. كان يعمل لحسابه .. وحسابه فقط .

الحائط الامريكى والايلون للسقوط

منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وحتى العقود الاولى من القرن العشرين ، اتضحت طبيعة التطور الذي لحق بالرأسمالية ، فزاد تركيز المؤسسات الصناعية ، وتمركز الانتاج ، وكشف النظام الرأسمالي عن وجهه الاحتكاري ، وكانت المنافسة - شعار البرجوازية الكلاسيكي - قد بدأت تلفظ انفسها ، والشركات الضعيفة تعاني مرارة الخوف تحت جبروت السيطرة المصرفية على الانتاج ، وكان هذا التطور يشكل ازمة كيانية للنظام الرأسمالي .. انفجرت في شكل ازمات اقتصادية تعرضت لها الدول الامبريالية ، وقد كشفت النظرية النازية بوضوح وبسلا اي التواء عن طبيعة هذا النظام ، فرغم ما يحمله كتاب كفاحي لهتلر من طنظمة حول التفوق الاري والسلالة الجرمانية التي ينبغي ان تصان من كل خلط ، سان نظرية المجال الحيوي ، كانت تعبر عن ازمة النظام باكملة في معناها الهاديء البسيط والمجرد : « لكل امة الحق في ان تحصل من ثروات العالم ومواده الاولية على قسط يناسب سكانها وحاجاتها وعلى حيز من الفضاء الحيوي او الاراضي يتفق مع هذه النسبة وهذه الحاجات » !!

وكان عصر الامبريالية ايضا هو قمة التطفل على قوة العمل ، فهو السرقة الجريئة واللاانسانية الى اخر مدى ، ومن هنا انتشرت البطالة والجوع وانتشر معهما الثورة والسخط وفي نفس الوقت الذي كانت الدول تحاول اعادة تقسيم « الفضاء الحيوي » كانت هناك مستعمرات تطالب بالاستقلال .. كانت هناك دول تبحث عن مستعمرات ، ومستعمرات تطالب بالتحرر .. كانت ازمة الامبريالية ذات عدة روافد .

● فمن ناحية كانت هناك الازمة الداخلية لكل حكم استغلالي ، بين الذين يشتركون قوة العمل وبين الذين يبيعون قوة العمل .. وفي معسكر المشتريين انفسهم كانت هناك ازمات اكثر عمقا ، فالاحتكار بطبعه يسحب الارض التي تقف فوقها مشروعات الفئات الوسطى النامية ، ومن هنا كانت الثورة تنتشر .. وتنتشر !

● وكانت هناك الازمة بين الدول الرأسمالية نفسها حول تقسيم

الاستعماري ، ومن هنا استفادت الحركة الصهيونية منه بعدما وجدت ان الاستعمار البريطاني وقد اكتشف ضعفه فحاول ان يحول دون انشاء الوطن القومي اليهودي بمقررات ١٩٣٩ ، فحاولت جدها للاستفادة من الاستعمار الجديد .. القوى .. امريكا ..

كان اول مظهر من مظاهر التأييد البريطاني للفكرة الصهيونية وعند بلفور ، الذي وجه آرثر بلفور وزير خارجية بريطانيا يومئذ في رسالة الى اللورد روتشيلد رئيس المنظمة الصهيونية الانجليزية . وبناء على هذا الوعد صدر صك الانتداب عقب انتهاء الحرب ، والانتداب هو فكرة الاستعمار الجديد ، او امريكا ، الذي كان يسرى ان اقتسام الفنائم ينبغي ان يتم بالطرق الكلاسيكية التي لم تعد تصلح للتعامل مع الشعوب ، وانما على عصبية الامم ان تنتدب من قبلها دولة كبرى تكفل اليهم مهمة تثقيف الشعوب المتحررة حديثا من نير الاستعمار التركي والالاني ، وهكذا صدر ميثاق عصبية الامم المتحدة متضمنا النص على تطبيق نظام الانتداب على البلاد المنتزعة من المانيا وحلفائها ، وان الانتداب رسالة تمديدية مقدسة ترافق عصبية الامم اداء الدول المنتدبة لهذه الرسالة .

والواقع ان المساعدة التي قدمتها سلطات الانتداب ، مساعدة يشكوها اليهود حتى اليوم ، ذلك ان هذه المساعدات قد جرت في جو من المقاومة الباسلة التي خاضتها جماهير الشعب الفلسطيني حفاظا على وطنها من التدفق العميل ... وكان واضحا امام سلطات الانتداب ان هدفها الاساسي ان يكون اليهود اقلية في فلسطين حتى يستطيعوا اعلان دولتهم فيها .. ومن هنا بذلت هذه السلطات جهودها فسي تشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين ، كما ساعدت ايضا على تنظيم القوات العسكرية اليهودية حتى ان المنظمات الارهابية اليهودية استطاعت بسرعة ان تتحول الى جيش منظم دخل الحرب ضد سبع دول عربية في مايو سنة ١٩٤٨ وانتصر عليها . ولعل اكبر المساعدات التي قدمتها سلطات الانتداب البريطاني هو انها - وهي المكلفة بحفظ الامن والنظام في فلسطين - قد انسحبت الى معسكراتها في الفترة من صدور قرار التقسيم في نوفمبر سنة ١٩٤٧ حتى انتهاء الانتداب وبداية الحرب اليهودية العربية في مايو ١٩٤٨ - وتركت اليهود والعرب في معركة ضارية ، تاركة ابواب معسكراتها لافراد العصابات الصهيونية لكي يسرقوا السلاح .

كان للاستعمار الانجليزي فضل احتضان الحركة الصهيونية وهي وليد يحبو ، الا ان الصهيونية كانت قد انتقلت بمركز نقلها الى اليدان الامريكي منذ ثلاثينيات هذا القرن فبعد انهيار ستار العزلة الامريكية ، خرج الاستعمار الامريكي من الحرب الاولى وقد دخلها في نهايتها كما فعل في الحرب الثانية - فويا فنيا ، في الوقت الذي بدأ فيه الاستعمار البريطاني يتوارى في السفح ، وبدأ البحث عن قاعدة في الشرق الاوسط . فقد حملت هذه العقود من القرن انتصارات الشعب السوفياتي بقيادة الطبقة العاملة مما دفع ، « الدول الرأسمالية وعلى رأسها الولايات المتحدة الامريكية الى تأييد الصهيونية بكل قوتها كوسيلة لتحويل يهود أوروبا عن الشيوعية وابعادهم عن الحركات المناصرة لها التي اخذت تشد

في جميع دول أوروبا بعد انتصارها في روسيا . » (٥٤)

وفي نفس الوقت كانت رغبة الولايات المتحدة في الحصول على قاعدة لها في المنطقة قد بلغت اوجها ، خاصة ان شعوب المنطقة نفسها كانت تعيش في ظل ظروف استغلالية بشعة مما كان يهدد باستمرار حدوث ثورات وانتفاضات شعبية لو توفرت القيادة المنظمة .

يضاف الى هذا كله ان النفوذ الصهيوني في امريكا غير مشكور فالامبريالية الامريكية تعتمد على احتكارات اليهود الصناعية والتجارية والزراعية ، ومن بين ٧٤ شركة صناعية كبيرة في هول ستريت توجد عشرون شركة يمتلكها كبار الرأسماليين اليهود ملكية تامة .

وكان الامريكيون يرون ان بريطانيا لم تعد قادرة على تنفيذ مخطط

الاجالات الحيوية ، فبينما كانت هناك دول رأسمالية راسخة القدم وزعت الاسواق بينها كانت هناك دول اخرى ناشئة تطالب بنصيبها من الفضاءات الحيوية ، من الاراضي البكر والمواد الخام وقوة العمل الرخيصة . وكانت الدول المستعمرة ، قد بدأت تنمو برجوازياتها بضعف بمساعدة رأس المال الاجنبي الوافد ، وبدأت الحركات الوطنية تطالب بالاستقلال في مصر وولايات الامبراطورية العثمانية والهند وكثير من مستعمرات العالم !

● وكانت هناك حاجة لاتخاذ وسيلتين لمواجهة هذه الازمة :

- ١ - ان تدخل الدول الاستعمارية في حرب بينها وبين بعضها لتقسيم الاسواق من جديد .
- ٢ - ان يوجد مبرر يمكن تقديمه لجماهير الشعب حول هذه الحرب ، لالهائها عن مطالبها من ناحية ، ولضمان الحصول على موافقتها على انزاع مكاسبها ورجائها وشبابها لتذهب جميعا ضحية الحرب !!

وفي هذا الاطار كانت الحركة الصهيونية تشكل فريسة سهلة للدول القديمة - إنجلترا وامريكا وفرنسا -

- ١ - فهي حركة تعبر (عن ازمة الطبقات المتوسطة اليهودية التي اخذت تبحث بحثا جنونيا عن مخرج من مازقها فوجدته فسي المذاهب الوطنية المتطرفة فالتقت بذلك مع مصالح كبار المستعمرين الذين كانوا يبحثون من جانبهم عن طريقة يجرون بها الشعب في الحروب الاستعمارية تحت ستار المثل العليا ومنها المثل العليا الوطنية) . (٥١)
- ٢ - وساعد على هذا ان التركيب الاجتماعي لليهود ، كان يحتوي على نسبة عالية من التجار والمالين والوسطاء الصفار ، كما انضم الى الحركة من ناحية اخرى كبار اليهود المالىين في القرب الذين رأوا فيها فرصة كبيرة لزيادة ارباحهم باستغلالهم افراد الطبقات الشعبية اليهودية المنتهين الى شرق أوروبا ، علاوة على استقلالهم الطبقات الشعبية فسي بلاد أوروبا الغربية فكان مشروع الدولة اليهودية الذي يرمي الى جمع الشعب اليهودي واحياء تاريخه ولفته واسكانه في وطن ملائم وانشاء دولة على النظم العصرية وقد كان للرأسماليين اليهود في هذا المشروع ما ارادوا اذ جاء يحمل لهم من الفوائد والارباح ما لا يوجد في الحركات القومية الاخرى . (٥٢)

- ٣ - « كان من مصلحة الرأسمالية العالية دائما ان توجه السخط الاجتماعي بعيدا عن اسبابه الجذرية ومن اهمها النظام الرأسمالي نفسه، فلقد استغل الرأسماليون الاحتكاريون والاستعماريون الحركة الصهيونية في تضليل الطبقة المتوسطة اليهودية عن سر ازمته كما استغلها فسي تضليل الاقسام غير المنظمة من الطبقة العاملة اليهودية وكما قام الاستعمار الالمانى بتضليل الطبقة المتوسطة والاقسام غير المنظمة من العمال الالمان بوسيلة اعتبار ذوي الديانة اليهودية مسؤولين عن الازمة في المانيا ، قام الاستعمار الانجلو امريكي بتضليل الطبقة المتوسطة والاقسام غير المنظمة من العمال بوسيلة اعتبار العودة الى فلسطين الحل الوحيد لآزمته » .
- ٤ - وكان الاستعمار العالمي يحاول الحصول على مجالات حيوية ، دولة عميلة تستطيع ان تكون قاعدة له في منطقة من اعنى المناطق واوفرها ادارا للربح للرأسمال العالمي !

ولا يستطيع ان ينكر ذلك الارتباط بين القوى الاستعمارية وبين الصهيونية العالية وبالذات الاستعمار الانجليزي والاستعمار الامريكي ، فهو ارتباط لا تؤكده وقائع التاريخ فحسب ، ولكن تعترف به الاطراف الثلاثة ايضا ، فليس الاستعمار الانجليزي والامريكي هو الذي ساهم وصنع اسرائيل فقط ، ولكنه ايضا هو الذي حماها واكسد وجودها ، وحرص على ان يفرض الوضع الحاد الحالي لفلسطين .

الا ان الصهيونية العالية قد حرصت لتحقيق مصالحها الخاصة ، على الاستفادة من التناقضات الاستعمارية ، فالاستعمار الامريكي ، الذي مكنه ظروفه الخاصة ، وخروجه من الحرب الاولى باقل الخسائر ، وكان مباشرا بسقوط الاستعمار القديم ، وتواريه وقد استطاع ان يتزعم المسكر

وانتقال الصهيونية من العمالة للاستعمار الإنجليزي للعمل لحساب الاستعمار الأمريكي هو انتقال من العمل لحساب استعمار مهذوم ، الى العمل لحساب استعمار قوي ... عنيف وحاد الى اخر مدى مع قمة الاستعمار الحديث ... أمريكا !!

واقع يتحرك بتناقضاته

ظهرت المسألة الفلسطينية على مسرح الواقع العربي ، في مرحلة من ادق مراحلها وليس جديدا ان يقال ان الاوضاع العربية هي المسؤولة عن تطور هذه المسألة بشكلها الحالي ، ولكن المهم هنا ان ندرك طبيعة هذه المسؤولة وان نصل الى تحليل موضوعي لها ، وينبغي هنا ان نلتمت الى ملاحظة جديرة بالاعتبار ... تلك ان الواقع العربي عندما تحرك في مواجهة المسألة الفلسطينية قد تحرك بتناقضاته ، في محاولة للحصول على عمل لهذه التناقضات كهدف اساسي ، ومن هنا فان موقفه لا يمكن ان يوصم بالخيانة او التردد من وجهة نظره هو ، فطبيعة التطور اليوم هي التي تحدد هذا الموقف في لحظته وليس المهم ان نصم طبقة او فئة بالخيانة ، ولكن الاهم ان نصل الى القول ان هناك فئات اجتماعية ، ترى حلا للقضية الفلسطينية يتجاوب مع امنيات الجماهير فسي السلام والامن الاجتماعي ، وان انتصار هذه الفئات يحمل حلا جديدا للقضية !

كانت محاولات الشعب الفلسطيني للحصول على استقلاله الوطني مواكبة لغيرها من الحركات المماثلة في الوطن العربي ، وقد بدأت جميعا في الفترة التي شهدت انهيار الاحتلال العثماني .

كان هذا الاحتلال مسؤولا عن بقاء هذه المنطقة من العالم فسي اسر الاقطاعية بما فرضه من عزله ، وبتصديره عددا من الحرفيين الى عاصمة ملكه ، وفي الوقت الذي كان النظام الاقطاعي يتهاوى في اوروبا تحسنت ضريات البرجوازية الزاحفة ، كانت هذه المنطقة تعيش ملتفة بالدين الاسلامي تحت حكم الامبراطورية العثمانية في تاخر ، وتخلف لا مثيل لهما . وفي محاولة البرجوازية الاوروبية المنتصرة الحصول على الاسواق ، ضمت اليها بعض الدول الواقعة تحت النفوذ العثماني ، اما ضمها فعليا كما حدث في مصر ، او بتسلسل رؤوس الاموال تدريجيا كما حدث فسي الكثير من الدول التابعة للامبراطورية العثمانية ومنها فلسطين .

وقد شهدت الولايات العثمانية قبل الحرب العالمية الاولى بداية الحركات الوطنية فتأسس عديد من الجمعيات العربية هدفها الاساسي الحصول على الاستقلال الذاتي للولايات العثمانية ، وكانت هذه الحركات تكشف عن طبيعة التطور الذي لحق باجزاء الامبراطورية العثمانية المتهاوية . (٥٥)

فقد كان النظام الاقطاعي في هذه الولايات في مرحلة التخلخل ، نتيجة لاستقرار الملكية الفردية من ناحية ، ثم بالاستفادة من شبكات المواصلات العديدة التي انشأها رأس المال الوافد لحماية مصالحه ، في نمو الحركة التجارية ، خاصة وقد ظهرت المزارع الكبيرة التي تنتج المنتجات الزراعية بهدف التصدير ، يضاف الى هذا حركة جينية لانشاء الصناعات الوطنية وحركة اخرى ترتبط بالراسمال الاحتكاري الوافد وتشكل طابورا خامسا له في الجهة الوطنية .

ومن هنا فقد كان النمو الجديد في المجتمع ، يحمل من ناحية طابع الاستقلال الرأسمالي للارض ويحمل ايضا طابع الرأسمالية الصناعية الضعيفة من ناحية اخرى . هذا الطابع المزدوج كان عليه ان يواجه مقاومة البرجوازية الاوروبية في اعلى مراحلها ، الاحتكار ، ومن هنا اتخذ طابعه الخاص ، طابع المقاومة الضئيلة المتهاذلة .. وبصفة اساسية محاولته الساذجة لاستغلال التناقضات بين المعسكر الاستعماري ..

وكان الشريف حسين شريف مكة ، هو الممثل لهذه الطبقة ، فقد حاول الاستفادة من التناقضات الاستعمارية عقب انضمام تركيا للامان

التنمة على الصفحة ١١٣

الصهيونية خاصة ان الانجليز قد ادركوا ضعفهم وادركوا الاطماع الامريكية فحاولوا في الكتاب الابيض الصادر عام ١٩٣٩ ان يترجموا ، ولم يكن هذا التراجع الا نتيجة لعنف الثورة الفلسطينية الكبرى عام ١٩٣٦ ، واما في ان تؤلف دولة ترتبط بحلف مع بريطانيا ، وقد اعترفت بريطانيا في الكتاب الابيض لعام ١٩٣٩ بتعارض الالتزامات التي اخذتها على عاتقها نحو اليهود والعرب وغموض معنى الوطن القومي اليهودي ومداه واعترفت بانها قد ساعدت على انشاء الوطن القومي اليهودي مساعدة فعالة بحيث صار من الصواب ان يتمتع اهل فلسطين بما امكن من السرعة بحقوق الحكم الذاتي التي يمارسها اهالي البلاد المجاورة ، وقررت تشكيل حكومة فلسطينية مستقلة خلال عشر سنوات ترتبط معها بمعاهدة وينتهي الانتداب وعلى ضوء هذا فانها ستسمح لآخر مرة لخمسة وسبعين الف مهاجر خلال خمس سنوات ثم لا يسمح بعد ذلك بهجرة يهودية اخرى الا اذا قيل بها عرب فلسطين .

لقد كان معنى هذا في نظر الصهيونية ان الحائط البريطاني قد سقط !

فقامت حرب اليهود ضد سلطات الانتداب ، وقتل عدد من الشخصيات البريطانية الالامعة وحاولت بريطانيا التنازل عن وعود عام ١٩٣٩ ، وفي نفس الوقت كان مركز الثقل ينتقل الى نيويورك وواشنطن .

وجه اليهود نداء الى الرئيس ترومان عام ١٩٤٧ قالوا فيه « ان قيام دولة يهودية في فلسطين ضروري لاستقلال الملايين الذين لا يزالون فسي مراكز التجمع بالمانيا واوروبا حتى يبني منهم حائط امريكي في الشرق الاوسط ، ان امريكا لا يمكنها الاعتماد في الايام القادمة على حليف حازم خير من دولة يهودية في ذلك الجزء من العالم ... » .

وصرح روزفلت في انتخابات الرئاسة « ان الشعب الامريكي يؤيد امل اليهود في قيام كومنولث ديمقراطي في فلسطين وسوف اساعد على تحقيق هذا الامل » .

وهتف ترومان « على عرب فلسطين ان يتركوها لليهود » . وفي انتخابات عام ١٩٤٤ صرح الديمقراطيون في برنامج حزبهم « اننا نؤيد فتح ابواب فلسطين للهجرة والاستعمار اليهودي دون قيد او شرط ، ونؤكد كذلك كل سياسة من شأنها ان تسفر عن تكوين دولة يهودية ديمقراطية حرة » .

وطالب الجمهوريون « بفتح فلسطين للهجرة غير المقيدة وامتلاك الاراضي حتى يمكن ان تنشأ في فلسطين دولة ديمقراطية حرة ، واننا نحمل بشدة على سياسة الرئيس ترومان بفشله في ان يجبر السلطة صاحبة الانتداب على تنفيذ نصوص وعد بلفور ، وذلك في الوقت الذي يتظاهر فيه بمساعدتهم » .

لقد استطاعت الدبلوماسية الامريكية اتباع اساليب التهديد بقطع المعونات الامريكية والضغط السياسي البالغ العنف حتى حملت الدول على تأييد قرار التقسيم ، وعلى الرغم من ان التقسيم كان في ذلك الوقت هو الحل الممكن ، او احسن الحلول السيئة فان الدول كانت ترى فيه اجحافا بحق العرب ، ولولا الضغط الامريكي لما استطاعت الصهيونية العالمية الحصول على قرار من الجمعية العامة بتأييد التقسيم .

ان خطورة اسرائيل اليوم لا تكمن في انها دولة فسي وسط المنطقة قامت على اساس استعماري فقط ، ولا تخفي خطورتها ايضا في انها استولت على الاراضي التي هي من حق الشعب الفلسطيني فحسب ، ان خطورتها الحقيقية ، انها قاعدة استعمارية ، تمثل الفكريات السائدة فيها امنيات الاستعمار العالمي في التوسع على حساب المنطقة ، وعلى الرغم من ان دعوى الاضطهاد قد انتهت من زمن ، فما زالت اسرائيل تصر على انها وطن اليهود في العالم اجمع ، وانها لكي تستوعب هذا العدد ، لا بد من ان تمد حدودها من الفرات الى النيل !

الخطورة الحقيقية لاسرائيل انها دولة عميلة للاستعمار العالمي الذي يعيش في شبه مازم باحثا عن اسواق !! .

في أصول المسألة الفلسطينية

- تنمة المنشور على الصفحة ٤٢ -

ثم افسح السبيل امام الاختلال الصهيوني الذي يوقف الاراضي الخصبة على الشعب اليهودي فيحرم الرأسمالية العربية من تداولها بين ايديها فضلا عن تشييته اقسام الاحتكارات الكبرى وحمائمه للصناعات الاحتكارية الاجنبية بنظامه الجمركي . وبدأت الرأسمالية العربية تشكل احزابها السياسية ، « تلك الاحزاب التي تدخلت فيها الطلائع السياسية لطبقتي الاقطاعيين والرأسماليين » مثل حزب الكتلة الوطنية ، ومؤتمر الشباب والحزب العربي الفلسطيني .. (٥٨)

وفي نفس الوقت كانت الطبقة العاملة الفلسطينية تتكون فسي خفوت ، فظهرت مراكز تجمعها في المدن الكبرى ، وتكونت اساسا من العمال الزراعيين الذين سحبت الرأسمالية الارض من تحت اقدامهم فبدأوا يهاجرون الى المدن ، كذلك تحول البدو الى عمال نظرا لحالة الفقر الشديدة التي كان يعانيها المجتمع الفلسطيني . وظهرت القيادات العمالية في فلسطين منذ سنة ١٩٢٠ ، ففقدت المؤتمرات العمالية ، وألفت بعض النقابات .

ويلاحظ ان تطور المجتمع الفلسطيني فد واكب الهجرة الصهيونية وانعكس ايضا على اليهود الوافدين ، فسياسة الهجرة قد اعتمدت على تصدير رؤوس الاموال الصهيونية والانكليزية ولهذا تميزت الحياة الاقتصادية بعمد الانتداب « بالميزات التي نجدها في اقتصاد المستعمرات اي بنظف عدد صغير من الاحتكارات - صناعية ومالية وزراعية - على اقتصاد متاخر نسبيا ، ومن جهة اخرى بنظف الاستثمار - ككل - على المستعمرة ككل ايضا . » (٥٩) ، فقامت السلطات الاستعمارية بحماية احتكاراتها بواسطة حماية جمركية متقنة ، حتى ان متوسط الرسوم الجمركية سنة ١٩٢٧ بلغ ١٠٠ ٪ على السكر و ١٤٩ ٪ على الدخان ... الخ .

وكان هذا الاحتكار يشكل خطرا على الطبقات الصاعدة ، يهودية وعربية ، اذ ان المهاجرين اليهود كانوا اما اصحاب رؤوس اموال للاستغلال ، او عمالا فقراء للعمل في المستعمرات ، وكان هؤلاء العمال يعيشون في ظروف عمل بالغة السوء فقد دلت بعض التقديرات على ان ٦٠ ٪ من العمال اليهود يبلغ دخلهم اقل من ٦ جنيهات فلسطينية في الشهر وقد عدد العمال اليهود العاطلين جزئيا وكليا ب ١٢٠٠٠ عامل ، وفي نهاية الحرب العمالية الثانية بعد ان خف الطلب على العمل بسبب انتهاء الحرب قدر عدد العمال اليهود العاطلين بستة الاف ، كذلك كانت اجور العمال العرب منخفضة جدا ، تصل الى ١٢٨ ملا يوميا وتراوح ساعات عملهم بين ٨ - ١٦ ساعة يوميا ، ورغم هذا فقد كانت التفرقة المنصرية تعمل على خفض اجورهم عن زملائهم اليهود ، فالعامل الفلسطيني كان يتقاضى من ٨٠ - ١٢٠ ملا لحرث الارض ، بينما يتقاضى اليهودي لنفس العمل من ٢٠٠ - ٢٥٠ ملا ، ويلاحظ ان الاجر في كلا الحالتين يتضمن استغلا ميعنا .. كذلك هاجر الى فلسطين عدد من الحرفيين اليهود ، ومارسوا نشاطهم المحدود هناك ، وظهرت بعض الصناعات اليهودية التي ما لبثت ان تطورت .. في الوقت الذي تطور فيه الاقتصاد العربي الفلسطيني ، الا ان هذا التطور - بفعل عديد من الظروف - قد نشأ عنه تجميعين طبقيين منفصلين ، فنلاحظ مثلا « انقسام الغرف التجارية قسامين عربية ويهودية كما ان مصدري الموالح الفلسطينية انشأوا بورصتين للاتجار الحمضية واحدة منها يهودية والاخرى عربية » . (٦٠)

ان شكل التطور في المجتمع الفلسطيني قد خضع لعدة اتجاهات :

● فهو قد خضع لبقايا الفكر الاقطاعي ، مثلا في ازدواجين البرجوازية الفلسطينية الناشئة عن التطور الرأسمالي للاتساج الزراعي ، وعن التطور الرأسمالي للاتساج الصناعي .

● وهو قد خضع للتفرقة بين العرب وبين اليهود ، فنشأت برجوازية يهودية واخرى عربية متنافستين ، ونشأت طبقة عمالية عربية واخرى فلسطينية متنافستين ، يدور هذا التنافس ويعمل على اذكاء ناره الرأسمالية الاحتكارية الصهيونية الانكليزية .

ومن خلال هذا المنحنى الخط بدأت الحركة الوطنية الفلسطينية .. كانت طبيعة التكوين الخاص للطبقة الفاعلة للحركة الوطنية خلال الحرب الاولى هي التي أنهت المرحلة الاولى منها بابدال الحكم

في الحرب الاولى ، فاتصل بالسر ماك ماهون المندوب السامي البريطاني بالقاهرة ، ودارت بينهما محادثات ، كان هدفها الحصول على مساعدة انجلترا في الاعتراف باستقلال الولايات العربية مقابل انضمامها للحلفاء في الحرب الاولى .. وقد بذل الشريف جهده لمساعدة الحلفاء ، في الوقت الذي استغلوا هم فيه الحرب لتنفيذ اهداف الرأسمالية الاحتكارية ، فوقع اتفاق سايكس بيكو السري بين انجلترا وفرنسا وروسيا القيصرية ، ثم صدر وعد بلفور ، وكلاهما ، والاتفاق والوعود يوزعان البلاد العربية بين دول الحلفاء ..

وكان صدور وعد بلفور ، نقضا واضحا لدعوة مكماهون للحسين ، فقد كانت فلسطين من بين الولايات التي حفظتها هذه الوعود كجزء من الامبراطورية العربية ، ومن هنا ساعدت قوات الحسين اللورد اللنبي في استيلائه وامتلاكه لها ، الا ان الانجليز عندما فتحوها بدأوا ينفسون مخططهم بفتح اسواقها للمنتجات ، وتصدير رأس المال اليها واستيراد المواد الخام منها .

وتنفذا لهذا المخطط عمد الاستثمار الى انشاء حركة اقتصادية نامية ، فقد ساهم الحكم العثماني في ايجاد لون من الوان الركود الاقتصادي ، ومن هنا بدأ الاستثمار في انشاء خطوط السكك الحديدية وشبكات الطرق والموانئ وغيرها من الانشاءات التي تساعده على اقصى استفادة من فلسطين .

وقد هزت هذه الانشاءات الاقتصاد الفلسطيني الذي كان يعتمد على الزراعة بشكل متخلف ، فبدأ يتطور تطورا جديدا . فالطابع الذي كان سائدا في الزراعة الفلسطينية اذ ذاك قريب من الاكتفاء الذاتي ، اذ كان اغلبية الانتاج من الحبوب والفلال يستهلكها الفلاحون محليا ، ومن هنا كانت الطرق المستخدمة في الانتاج الزراعي طرقا متخلفة ، فالسري يعتمد على الامطار والادوات المستخدمة في الزراعة ادوات بالية كالمحراث الخشبي والاسمدة غير الكيماوية . وكانت خطوة هذا اللون من الزراعة انه غير كاف لتوفير حياة اقتصادية نشطة وكان تنشيط الزراعة بعمد ظهور الموانئ وطرق المواصلات مولدا لتنشيط التجارة ، فتحوّلت الزراعة الفلسطينية الى زراعة كثيفة ، فتضاعفت مثلا المساحة المزروعة بالاشجار الحمضية (الموالح) ، وبدأت المنتجات الزراعية تظهر كسلعة تساعدها الظروف الحضارية على التصدير وادى هذا ايضا الى ظهور المدن ونموها ، مما خلق نوعا اخر من الزراعة الكثيفة - لم يكن مهتما به من قبل - وهو زراعة الخضار والفواكه ، وبالطبع فان هذا لا يعني ان الزراعة الفلسطينية قد تحوّلت كلها الى زراعة كثيفة ، فقد ظلت هناك مساحات كثيرة تعتمد على الطرق البالية ولكن المهم ان بدء التطوير الرأسمالي للزراعة ، قد ظهر في هذه المرحلة وظهر معها بشكل جيني صناعة فلسطينية متواضعة اساسها الحرفيون من اليهود والعرب الذين بدأوا العمل في ظروف تتحدى الرأسمالية الاحتكارية الوافدة .

أدى هذا التطور الى نشوء طبقات اجتماعية في فلسطين ، واضمحلال بعض الطبقات « غير ان هذا التغير لم يقتصر بتغير مماثل له في جميع نواحي الحياة الفلسطينية ولا سيما ان صعود الطبقات الجديدة صعودا اقتصاديا واجتماعيا بما كان يمكنها من الاستثمار في هذا السبيل ومن فتح الامكانيات واسمعة امامها لتتولى الحوك السياسي » . (٥٦)

كانت الرأسمالية العربية الناشئة في فلسطين « تريد ان تكون اقتصاديات فلسطين جميعا في مجال الاستغلال والاستثمار ، غير ان الاوضاع التي فرضها الاستثمار على فلسطين لا تسمح بذلك » . (٥٧)

كانت هذه الاوضاع تتبلور في بقاء النظم الاقطاعية من ناحية ،

الانكليزي بالحكم التركي ، ولقد استطاع الاستعمار الانكليزي بما له من دراية وحكمة ، ان يضرب الرأسمالية الناشئة ، فاجتنب من قيادتها العناصر الاقطاعية التي يسهل التحالف معها ، والتي تربط مصالحها بمصانحه وبدأت اللجنة التنفيذية العربية وهي الهيئة التي انتخبها المؤتمرات العربية للإشراف على الحركة الوطنية في فلسطين اذ ذاك في محاولة فهم الموقف ، غير انها وقعت في الفخ الذي نصبه الاستعمار لها اذ « شهدت قضية فلسطين منذ الاحتلال البريطاني الى عام ١٩٢٦ سلسلة من المذابح التي قام بها العرب ضد اليهود بسبب الاستفزازات الاستعمارية المتكررة ، طمانين ان هؤلاء هم المصدر الرئيسي للبلاء وان الحكم البريطاني لولاهم لحقق وعوده ونفذها » . وعندما استكملت الازمة الاقتصادية في فلسطين نتيجة للازمة العالمية للنظام الرأسمالي (١٩٢٥ - ١٩٢٩) ، بدأت سلسلة اخرى ممن المذابح ...

لقد استطاع الاستعمار البريطاني ان يوجه الحركة الوطنية بان اليهود هم اسباب الازمة في حين ان اليهود ضحايا مثل العرب للامبريالية ، وساعدت العناصر الاقطاعية على تحويل النضال الثوري ضد الاستعمار الى نضال عنصري وديني .. الا ان البرجوازية العربية بدأت تدرك - بنموها وتطورها - طبيعة المعركة ورفعت شعار الامة ، وأوقفت عددا من الوفود الى مؤتمرات عالمية بهدف شرح قضية الوطن الفلسطيني بأكمله .. فاحتجت على الوطن القومي اليهودي وطالبت بحكومة برلمانية وفلسطنة الوظائف والمساواة بين العمال العرب واليهود في العمل الحكومي ، وهي في اعتراضها على الوطن اليهودي تسجل خطره الشديد « على شعبنا من حيث الاقتصاديات والقومية والكيان السياسي » ثم تنص على ان « سكان البلاد الاصليين من اخواننا الموسويين لهم ما لنا وعليهم ما علينا » وفي المؤتمر العربي السابع (١٩٢٨) سجلت « ان العرب في فلسطين وهم يظلمون حقهم في الحكم التشريعي لم يريدوا قط ان يغمطوا حقوق اليهود الذين يسكنونهم » . (٦١)

واخذ النضال العربي في تلك المرحلة عدة وسائل سلمية في الغالب ، فامتنع العرب عن الترشيح في الانتخابات البلدية ورفضوا مشروع الوكالة القريبة . الا ان هذا لا يعني ثورية القيادة السياسية على اطلاقها فقد شابت بعض مواقفها تهاونية واضحة ، كما ان موقفها العنصري من اليهود لم يتلاش تماما . وخطورة الموقف العنصري من اليهود - فضلا عما في العنصرية نفسها من تخلف - انه ابعد المعركة عن مجالها الحقيقي ، فالانكليز هم العدو الاساسي في المعركة ، ووجودهم هو الذي سبب وجود اليهود في فلسطين ، وترك حكومة الانتداب وشن حرب دينية على اليهود دون كيشونية لا معنى لها ، وقد اثبتت مراحل التطور بعد ذلك خطأها وعدم جدواها .

الا ان تطور الرأسمالية العربية كان يفتح باستمرار آفاقا لرؤية اوسع وبالتالي لموقف اكثر ثورية . وخاصة في الفترة التي تلت عام ١٩٢٣ حيث توسعت حكومة الانتداب في السماح لرؤوس الاموال بالعمل ، وزادت ايضا الاموال الاجنبية في فلسطين ، ففي هذه الفترة « وعت الرأسمالية العربية الناهضة بان الاستعمار البريطاني هو عدوها الرئيسي وتحولت ثأرتها من مكافحة اليهود الى مكافحة حكومة بريطانيا العظمى ، فأخذت الحركة الوطنية العربية القوميات الرئيسية للحركات القومية حتى ان تقرير بيل (١٩٢٧) لا يجد مفرا من الاعتراف بذلك اذ يقول : ويظهر جليا اذن ان مشكلة فلسطين هي مشكلة سياسية وانها كما هي في البلاد العربية الاخرى مشكلة القومية الثائرة » . (٦٢)

وتشكلت قيادة جديدة للحركة الوطنية ، وبدأت الثورة الفلسطينية سنة ١٩٢٩ بقيادة الفئات المثقفة من الطبقة الوسطى ، واندمجت من المدن الرئيسية .. وكانت بدايتها بعض المظاهرات العنيفة التي لم لبثت - تحت ضغط المقاومة - ان تحولت الى ثورة « . ووجهت قيادة الحرس الوطني بياناً بالكفاح المسلح جاء فيه ان الانكليز « هم الاصل في قضيتنا واليهود الفرع ، هم الذين رموننا

بالصهيونية وهم الذين يهدرون دماء ابائنا » . الا ان المعتدلين في قيادة الحركة الوطنية لم يتوقفوا تحول الاضراب الى ثورة مسلحة فبدأت محاولات الصلح ، والتفكير ، ثم ساعدهم ملوك العرب معتمدين كما جاء في بيان اللجنة العربية العليا « على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية ورغبتها الملئنة لتحقيق العدل » .

وقد حاولت قيادة الطبقات الشعبية التي ظهرت خلال الحرب العالمية الثانية ان تقدم حلا عمليا للمسألة ، مبينا على ما كشفت عنه التطورات الاخيرة ..

١ - فمن ناحية كان اندحار الفاشية الاوروبية قد ادى الى قيام حكومات شعبية في اوربا وهي مركز الاضطهادات القومية والعنصرية وبخاصة ضد اليهود - مما بشر بقرب زوال المسألة اليهودية زوالا نهائيا .

٢ - ومن ناحية ثانية كانت جماهير اليهود في فلسطين تفكر في ان تبرحها وتعود الى بلادها المحررة لان الطبقات العمالية اليهودية بدأت تنفذ ارتباطها العنصري والديني بالصهيونية بعدما تركز الانتاج الصهيوني وكشف عن طفيلته . ولهذا طالبت القوى الجديدة :

١ - الفاء الانتداب وانشاء حكومة ديمقراطية وطنية في فلسطين تمثل جميع سكانها عربا ويهودا .

٢ - السماح لمن يريد العودة من اليهود المصدرين الى فلسطين الى بلده الاصلي بالعودة ، ووقف الهجرة اليهودية الى فلسطين وسقوط خرافة انشاء الوطن القومي اليهودي .

الا ان هذه المطالب كانت تواجه بصراوة من جهات ثلاث :

● من الاستعمار البريطاني الذي كان ما يزال يحلم بالاستيلاء على جزء من فلسطين ولو لحساب زعيمة معسكره اميركا .

● من الجهات اليمينية التي كانت تقود الحركة الصهيونية .

● من الدول العربية التي كانت تحاول في تلك المرحلة ان تستفيد من المسألة الفلسطينية للتغلب على مشاكلها الداخلية ..



كان قرار التقسيم هو احسن الحلول السيئة ، والدول التي وافقت عليه كانت تدرك جيدا انه لا يوجد حل احسن سوا منه ، فالحق الفلسطيني كان واضحا جدا ، والباطل الصهيوني كان ايضا واضحا جدا . الا ان الممارك العنصرية العنيفة كانت قد قضت على أي أمل في انشاء دولة ديمقراطية تضم العرب واليهود ، ومن هنا كان التقسيم هو الحل المعقول ..! صحيح ان التقسيم كان سيعطي للاستعمار قاعدة في المنطقة ، الا انه كان ايضا سيسمح بقيام دولة فلسطينية عربية تستطيع ان تؤكد وجودها وتنمي اقتصادها ولم تكن الدولة اليهودية هي القاعدة الوحيدة للاستعمار في المنطقة اذ ذاك ، كما انها ليست هي الوحيدة الان ..

ولكن الدول العربية رفضت التقسيم !! وبدأت تستعد لدخول الحرب !!

ورفضت العناصر الصهيونية اليمينية - مثل عصاية شترن - التقسيم ، وقال مناحم بيغن « ان الوطن - وطن اليهود - قد بتر » .

وبدأت هذه العناصر تستعد لدخول الحرب !!

ويعد الموقف الذي وقفته مصر من المسألة الفلسطينية - قبل يوليو ١٩٥٢ - دليلا واضحا على مدى ما كانت تعانیه البرجوازية المصرية من ازمات ..!

كان التطور الذي شهدته المجتمع المصري منذ ثورة ١٩١٩ يتمثل في محاولة البرجوازية المصرية صنع ثورتها « والقيادة السياسية لتلك المرحلة هي قيادة البرجوازية في مرحلة نشوئها والطابع السائد للرأسمالية المصرية اذ ذاك هو طابع الرأسمالية التجارية الضعيفة ، ومن هنا اخذت اسلوب الكفاح المتهادن المستسلم احيانا .. وكان يحيط بالرأسمالية المصرية عدد من القوى الاجتماعية القريبة التكوين ، فكبار ملاك الاراضي كانوا يشكلون نوعا من الاستغلال الرأسمالي للارض لان النسبة الكبرى من اراضيهم كانت تستغل ايجاريا .. بينما كان

كان اعلان الحرب فرضا لاعلان الاحكام العرفية واعتقال الاف الشرفاء ومصادرة الصحف الحرة .. كحجوة لاطفاء الرجعية سنوات تطيل عمرها .
٢ - وكان الانسحاب من اللد والرملة ، يكشف عن طبيعة الحرب الانتهازية ، فراح الاف الفلسطينيين والعرب ضحية القدر ، وضحية اطماع الاستعمار الانكليزي وحلفائه الذين اكتشفوا تحول اسرائيل الى قاعدة اميركية فيداوا يحاولون خلق قاعدة اخرى انكليزية تضم الضفة الغربية من نهر الاردن ، وشرق الاردن في مملكة واحدة !
٣ - وكان ضياع فلسطين العربية التي طالب بانشائها قرار الامم المتحدة بالتقسيم ثم كارثة اللاجئين دليلا حيا على ما يمكن ان يصنعه الاستعمار وعملاؤه بالشعب العربي ..

ومن هنا كانت كارثة فلسطين هي صحوة الموت للرجعية العربية ، وصحوة الميلاد للقوى النامية في مصر والبلاد العربية !
ان الظاهر الباقي لمشكلة فلسطين هو كارثة اللاجئين العرب واكثر من نصف اللاجئين العرب يعيشون في الضفة الغربية للاردن حيث يعيش ١٩٩٦٠٦ لاجئين فلسطينيين يتوزعون في مدن عمان واربد ونابلس واوريس والقدس والخليل ، يعيش منهم ١٢٠٢٥٠ لاجئا في المخيمات التي اقامتها وكالة الفوت وعددها ٢٤ مخيما ، في الوقت الذي يعيش فيه ثلاثة اصعاف هذا العدد خارج المسكرات يعملون مختلف الاعمال في الاردن ، ويتوزع النصف الثاني من اللاجئين بين قطاع غزة ولبنان وسوريا ، ويعيش في لبنان ١٠٢٦٠٠ لاجيء منهم ٣٠ ٪ يعيشون في خمسة عشر مخيما تابعة لوكالة الفوت .. اما في سوريا فيبلغ عدد اللاجئين ٨٨٤١٧٩ لاجئا ، يعيش منهم ١٩٦٧٢٥ في عشرة مخيمات ويعيش الباقون خارج هذه المخيمات . ويعيش في قطاع غزة - وهو الجزء الباقي من فلسطين بعد ان ضم جزأها الاخران الى الاردن واسرائيل ، حوالي ٢١٤ الف لاجيء فلسطيني ينضمون الى سكان القطاع الاصليين وهم ٨٥٠٠٠ نسمة وبذلك يصبح عدد السكان حوالي ٢٠٠ الف نسمة . ولقد تطور عدد اللاجئين بتطور الحرب الفلسطينية ، فقبل ١٤ مايو ١٩٤٨ كان عدد اللاجئين ٦٠ الف لاجيء .. اغلبهم جاء من القدس ويافا وطبرية وهي المناطق التي كانت في يد اليهود في ذلك الوقت وفي الفترة التي تلت قيام اسرائيل في ١٥ مايو حتى توقيع الهدنة الاولى ارتفع عدد اللاجئين الى ٣٦٠ الف لاجيء توزعوا بين مصر وسوريا ولبنان والاردن ثم بقي جزء منهم في المدن التي لم تكن قد وقعت حتى ذلك الوقت بين يدي اليهود - اللد والرملة والمجدل والتامة وعكا - وظل العدد يرتفع بعد استئناف القتال وبعد توقيع اتفاقية رودوس الشهيرة ارتفع العدد الى ٩٤٠ الف لاجيء .

ويعيش اللاجئون الفلسطينيون في ظروف معيشية في منتهى السوء ، يقول ليلنتان « ففي لبنان مثلا تعيش حوالي ٢٤٣ اسرة في شبيلا في خيام متعددة الانواع والاشكال وعندما تسقط الامطار الغزيرة في الشتاء وتندوب الثلوج على الجبال يقيم هؤلاء اللاجئون ويعيشون وينامون في الجبال وتبني بعض الاسر اكواخا في الصحراء تسكن فيها كل سبعة افراد في كوخ ، ويعتمد كثير من اللاجئين على بيع الخضروات او العمال كبوابين او في اية مهنة اخرى وفي الخيام والاكواخ لا توجد ارض صلبة ، بل انها لزجة ومملوءة بالطين ومعظم الخيام مزقة وتوجد خرق مملئة بالماء هنا وهناك ، وقد توجد في الاركان بطانية موضوعة على بعض القش لكي تبعد الدفاء وينتشر في الخيمة بعض مواقد البترول ، والمنازل بلا اسقف وبعد النساء خبزهن على الارض ويخلطون الدقيق الذي تقدمه هيئة الاغاثة بالماء والخمير اما في الاردن فيعيش اللاجئون في المسكرات او في الكهوف الموجودة بين السهول الصخرية في جوريا وسماريا ومن هناك يستحيل عليهم رؤية ديارهم وحقولهم وبيساتينهم » . (٦٩)

ان مشكلة اللاجئين الفلسطينيين هي الدليل الحي على ما يمكن ان تصنعه الرأسمالية المالية من اجل تنفيذ مخططاتها والاستيلاء على اسواق العالم العربي ..

وعلينا ان نحاول فهم المسألة الفلسطينية كجزء من صراعنا الرهيب ضد الاستعمار العالمي وان نعمل من اجل كفاح لا تهادن فيه الاستعمار وقواعده ..

راس المال السائل في ايديهم يستغل في شركات اجنبية تعمل في مصر ، وفي نفس الوقت كانت مصانع النسيج في لانكشير ترتبط بمصالحها بمصالحهم ، فالقطن وهو السلعة الرئيسية للانتاج الزراعي كان يصدر الى انكلترا « (٦٣) وكان هذا الازدواج في النمو ، هو الذي لم يتج للحركة الوطنية المصرية تحقيق ثورتها حتى عام ١٩٥٢ ، ف كبار ملاك الاراضي كانوا اقوياء ، وكان الملك على رأسهم يمثل سلطة قوية ، ساعدتها الظروف التاريخية على العصف بجميع المكاسب الديمقراطية ، وفي خلال الحرب العالمية الثانية نمت قوى اجتماعية جديدة ، فالقيادة السياسية للبرجوازية المصرية كانت قد ارتبطت بالقوى الاستعمارية نتيجة لدخول عدد من كبار ملاك الاراضي فيها ، ومن هنا فان نشوء الصناعات الوطنية في الحرب العالمية الثانية وتطورها ، حمل فئات حرة من البرجوازية المصرية ، كانت ترى نفسها تواجه مقاومة من كبار ملاك الاراضي والفئات الاحتكارية من البرجوازية العميلة ومقاومة اخرى من جماهير الشعب التي نمت وزادت قوتها في تلك المرحلة .. وكانت فضائح فساد الحكم تفوح رائحتها .. والجماهير تتلمذ في ثورة عنيفة .. والسخط ينتشر بين ضباط الجيش وجنوده .. ومن هنا كانت الحاجة ماسة الى :

١ - اجراء سهل اعلان الاحكام العرفية والقبض على القيادات الشعبية من ناحية .

٢ - ويشغل ضباط الجيش والجماهير الشعبية عن المطالبة باجلاء الجيوش الانكليزية والاصلاح الداخلي ..

٣ - ويحقق مكاسب خاصة للمشاركين فيه .
وقد بدأ التمهد للحرب الفلسطينية قبلها بسنوات ، وكانت الجمعيات الدينية تعمل بهمة لنشر التعصب الديني ضد اليهود والمسيحيين ، مما كان مثار شكوى للطوائف غير المسلمة ، كما بدأت حملة اغتيال اليهود ونسف منشآتهم الاقتصادية ، بهدف اثاره الروح التعصبية لدى الجماهير الشعبية للحصول على موافقتها على دخول الحرب .

وانفرد الملك باصدار قرار دخول الحرب على الرغم من علمه بان حالة الجيش لا تسمح بدخول الحرب . يقول اللواء المواوي قائد حملة فلسطين ان وزير الحربية المصرية طلبه من العريش في ١٠ مايو سنة ١٩٤٨ للوقوف على رأيه فيما يختص بدخول الجيش حارب فلسطين « فافهمته الموقف بمنتهى الصراحة وهو ان الجيش لا يصلح مطلقا للدخول في اي معركة كانت ، وعرضت عليه في احدى مرات زيارتي لمصر ان يحضر للعريش بنفسه ، وفعلا حضر فلم يجد اي شيء في الاسلحة صالحا على الاطلاق للدخول في المعركة فذكرته بالموقف الذي رآه بنفسه بالعريش وما سمعه من جميع ضباط الاسلحة فيما يختص بالحالة السيئة التي عليها الجيش ، فأخبرني ان دولة رئيس الوزراء سيحضر بعد قليل فاذا ذكر له ما تقول » (٦٤) . وعندما حضر رئيس الوزراء اخبره « ان الجيش لا يصلح مطلقا للدخول في اية معركة مهما كانت حالتها ومهما قيل عن اليهود من ضعف فان جيشنا تنقصه كافة المعدات وأهمها الاسلحة التي يستعملها الجنود في المعركة فالبنادق في حالة سيئة » . (٦٥)

ويقول ابراهيم عبد الهادي رئيس ديوان الملك المصري السابق فاروق : « المسألة كانت مسبوقه بدعاية طويلة لدخول الحرب ، وكانت الجامعة العربية منعقدة ، وكانت كل المسائل المتعلقة بهذا الموضوع بين الملك فاروق وبين الجامعة العربية . وانا لم اعلم مطلقا عن دخول الحرب شيء الا حين علم كل الناس » (٦٦) . ويقول الفريق محمد حيدر وزير الحربية الذي دخلت مصر الحرب في عهده : « ان العسكريين لم يجتمعوا ولم يؤخذ رأيهم انما كان هناك اتفاق بين ملك مصر ورؤساء الدول القريبة في اجتماع انشاص سنة ١٩٤٧ بان يدخلوا الحرب » . (٦٧)

لقد كشفت حرب فلسطين بمراحلها المتعددة عن الرجعية العربية في صحوة موتها ..

١ - فكانت فضيحة الاسلحة الفاسدة في مصر (٦٨) ، دليلا حيا على مدى الاستقلالية البشعة التي وصلت اليها نظم الحكم ، كذلك

ويوم تنتصر القوى التقدمية في صراعها من اجل التحرر ..
ستنتصر قضية الشعب الفلسطيني .
القاهرة

صلاح عيسى

مراجع الدراسة

- *** تأثرنا في تكوين اطار المعالجة بدراسة الاستاذ صبحي وحيدة
« في اصول المسألة المصرية » وهي الدراسة التي ارتفعت بالمسألة
المصرية الى جذورها التاريخية من وجهة نظر صاحبها ، اما نسي
الهندسة الداخلية لدراستنا فنحن ندين للاستاذ ابراهيم عامر صاحب
« ثورة مصر القومية » بذلك التقسيم الى قوى تعرض من خلال
صراعها مع غيرها من القوى ، وبالطبع فان مسؤولية الدراسة بأكملها
تقع على عاتقنا . هذا وقد حرصنا على ان نورد الحقائق من مصادر
كلما امكن ذلك ، مكتفين بالربط بينها - فضلا عن اختيارها - بما
يخدم نهجنا في البحث .
- (١) عبد الله التل - فلسطين وبعث القومية العربية - الدار القومية
بالقاهرة - ١٩٥٩ - ص ٦
- (٢) نفس المرجع ص ٦
- (٣) صادق مسعد المحامي - قضية فلسطين - دار القرن العشرين
للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٤٥ ص ٨٢
- (٤) سماحة السيد امين الحسيني - حقائق عسبن قضية فلسطين
ط ٢ - مكتب الهيئة العربية العليا لفلسطين بالقاهرة ١٩٥٦ - ص ٢٦
- (٥) مرجع رقم ٣ - ص ٨٣
- (٦) المر وجر - اليهودية دين لا قومية - اخترنا لك ٥٤ - دار المعارف
القاهرة - ص ٢٦
- (٧) نفس المرجع ص ٢٣
- (٨) عباس محمود العقاد - الصهيونية العالمية - اخترنا لك ٢٧ -
دار المعارف بالقاهرة ص ٢٨
- (٩) نفس المرجع ص ٢٨
- (١٠) نفس المرجع ص ٢٨
- (١١) نفس المرجع ص ٤٣
- (١٢) نفس المرجع ص ٤٨
- (١٣) نفس المرجع ص ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩
- (١٤) مرجع رقم ٨ ص ٩٢
- (١٥) نفس المرجع ص ١١٣
- (١٦) نفس المرجع ص ١١٤
- (١٧) مرجع رقم ٦ ص ٣٤
- (١٨) خروشوف - تقرير الى المؤتمر الحادي والعشرين الاستثنائي
للحزب الشيوعي السوفييتي ص ١١٥
- (١٩) اسرائيل كوهين - هذه هي الصهيونية - اخترنا لك ١ - دار
المعارف بالقاهرة - ص ١٤
- (٢٠) محمد عزة دروزه - تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم - ٣ اجزاء -
اخترنا لك ٨٥ - ٨٧ الدار القومية بالقاهرة
- (٢١) مرجع رقم ٣ ص ٤
- (٢٢) محمد عبد العزيز نصر - الصهيونية في المجال الدولي - اخترنا
لك ٣٦ - دار المعارف بمصر - ص ٢٤
- (٢٣) راجع انجيل متى - اصحاح ٢٧ - وسامي منصور - مفاجأة
خطيرة في الدورة الثانية لمؤتمر الفاتيكان - الاهرام القاهرية
عدد ٢٨٠٨٤ في اول نوفمبر ١٩٦٣
- (٢٤) في الاصحاح الرابع والعشرين من سفر يشوع هذه العبارة
« هكذا قال الرب الى اسرائيل - في عبر النهر سكن آبائكم
سند الدهر » وقد يفيد هذا ان بني اسرائيل الذين يقررون ان
أباهم الأكبر من عبر النهر اي من وراء النهر الذي هو نهر الفرات
على الارجح - راجع محمد عزة دروزه مرجع ٢٠
- (٢٥) مرجع ٣ ص ٦
- (٢٦) جان بابي - استاذ بجامعة باريس - القوانين الاساسية للاقتصاد
الرأسمالي - ترجمة شريف حتاتة وآخرون - دار الفكر -
القاهرة ١٩٥٧

- (٢٧) مرجع ٢ ص ٦
- (٢٨) مرجع ٢٦ ص ٤٤
- (٢٩) مرجع ٢ ص ٨
- (٣٠) مرجع ٢٦ ص ٤٤
- (٣١) مرجع ٢٦ ص ٤٤
- (٣٢) نفس المرجع ص ١٣
- (٣٣) مرجع ٢٢ ص ٣٠
- (٣٤) مرجع ١٩ ص ٤٧
- (٣٦) ابراهيم عامر - ثورة مصر القومية - دار التمدد بالقاهرة ١٩٥٨ -
ص ٩٠
- (٣٧) ج.ي. عزيزمين - الطبقة والامة - دار القلم بسوريا -
١٩٥٤ - ص ٤٣
- (٣٨) ي. ستالين - الماركسية والمسألة الوطنية - ص ٨
- (٣٩) مرجع ٢٧ ص ١٨
- (٤٠) نفس المرجع ص ٢٠
- (٤١) حق الامة في تقرير مصيرها - ترجمة باشراف دار ابن الوليد -
دمشق ١٩٥٧ - ص ١١
- (٤٢) نفس المرجع ص ١٢
- (٤٣) نفس المرجع ص ٩
- (٤٤) لينين - الدولة والثورة - ترجمة فؤاد ايوب (د .) - دار دمشق
للطباعة والنشر - ص ٩ ، ١٠
- (٤٥) مرجع ٤١ ص ٤
- (٤٦) نفس المرجع ص ٩
- (٤٧) كارل ماركس - المسألة اليهودية - ترجمة محمد عيتاني - دار
بيروت - ص ٥٦
- (٤٨) نفس المرجع ص ٥٦
- (٤٩) عبد المنعم الغزالي - اسرائيل قاعدة للاستعمار وليست امسة -
دار الفكر بالقاهرة ١٩٥٩ - ص ١٨
- (٥٠) علي محمد علي - في داخل اسرائيل - كتب قومية - الدار
القومية بالقاهرة - ص ١٩٧
- (٥١) مرجع ٢٦ ص ٩٠
- (٥٢) مرجع ٣ ص ١٢
- (٥٣) مرجع ٣٦ ص ٩٠
- (٥٤) عبيد الامام - الصلح مع اسرائيل - كتاب النيل - القاهرة
- ١٩٥٥ - ص ١٣٦
- (٥٥) راجع - طه شرف - الاحداث العربية في تاريخها الحديث -
واحمد طربين - الوحدة العربية
- (٥٦) مرجع ٣ ص ٦٩
- (٥٧) نفس المرجع ص ٦٩
- (٥٨) نفس المرجع ص ٧١
- (٥٩) نفس المرجع ص ٣٦
- (٦٠) نفس المرجع ص ٦٩
- (٦١) نفس المرجع ص ٧٨
- (٦٢) نفس المرجع ص ٨٨
- (٦٣) صلاح عيسى - اتجاهات الحركة الوطنية المصرية بين
١٩١٩ - ١٩٥٢ - ملحق المساء الادبي والفني ديسمبر ١٩٦٣
- (٦٤) المحاضر الرسمية لمحكمة الثورة المصرية عام ٥٣ - ١٩٥٤ -
محكمة ابراهيم عبد الهادي رئيس وزراء مصر عام ١٩٤٨
- (٦٥) ، (٦٦) ، (٦٧) نفس المرجع
- (٦٨) لمراجعة تفاصيل قضية الاسلحة الفاسدة - ارجع الى مقالات
الاستاذ احسان عيد القدوس في مجلة روز اليوسف القاهرية
من ٦ يونيو ١٩٥٠ - وكذلك ثلاث مقالات لنفس الكاتب عن الحرب
الفلسطينية بعنوان « اني اطالب بالتحقيق مع الفريق محمد حيدر »
بنفس المجلة في الاعداد ١١٦٧ ، ١١٦٨ ، ١١٦٩ ، في ٢٤ - ١٠ ،
٣١ - ٧ ، ١٠ - ١١ عام ١٩٥٠
- (٦٩) صلاح عيسى - مجتمع المأساة كيف يعيش - دراسة عن مجتمع
اللاجئين الفلسطينيين - مجلة المجتمع العربي القاهرية -
مايو ١٩٦١ .